

نُورُ اليَقِينِ فِي سِيرَةِ سَيِّدِ المرْسَلِينَ

للشيخ محمد الحضري { رحمه الله }

كتاب مختصر يبحث في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة من الولادة إلى الوفاة وما بينهما من نشأة وبعثة ومحنة وتعذيب وإسراء وطلب نصرته وهجرة ومعارك وعهود ومواثيق وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بسيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

نحمدك يا من أوضحت لنا سُبُل الهداية، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية، ونصَلّي ونسَلّم على مَنْ أرسلته شاهداً ومُبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان، والأنصار الذين آووا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادّخروا.

أما بعد، فيقول محمد الخضري ابن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري: كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين، وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب، وأنصح معلّم، وكنت أرى في تاريخ نبينا — عليه الصلاة والسلام — وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده، أعظم مُربٍ لأفكار المسلمين، فإنه يدلّهم على ما يجب اتباعه، وما يلزم اجتنابه، ليسودوا كما سادَ سابقوهم، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام، من اجتذاب النفوس النافرة، والتأليف بين القلوب المختلفة، وما يتعلق بقواد الجيوش، من تأليف الرجال وإحكام المعدّات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم، وما يتعلق بالعامّة، من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على مَنْ سواهم. فكنتُ أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً، وكانت نفسي كثيراً ما تأسف على ترك المسلمين لها، فقلّما أجد من يشتغل بها، ولكنني كنتُ أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع. فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم، القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة، فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحول الرجال، وتتاخر عن مسابقتة فيه الأبطال، فقلّما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرزاً فيها، مفصلاً عن الجواب عنها. أما علمه بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فعنده منها الخبر اليقين، وكنت كثيراً ما أسمعُه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامّة المسلمين، فقلت: يا الله لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي،

ولكنني كنتُ أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته، فإن المقام عظيم، وصعوباته أعظم. ولكن لم أرَ من الأمر بُدّاً تلقاء ما كنتُ أسمعُه من كبار رجال المنصورة، فإنهم أكثروا من الأمانى لعمل هذا الكتاب، العميم النفع، الجزيل الفائدة، ففقت معتمداً على الله راجياً منه أن يوفّقني لما فيه رضاه، وواصلت السَيْرَ بالسُرَى حتى بلغت المنى، فجاء بحمد الله، سهل المنال، عذب المورد، تنتفع به العامّة، وترجع إليه الخاصّة. وقد كان موردي في تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنّة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدّ من تقيهم العبارات، فكان يساعدني «الشفاف» للقاضي عياض و«السيرة الحلبية» و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي. هذا، وأسأل الله

من فيض فضله أن يوفق أمتنا وأمرأنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإحياء معالم دينه حتى يؤيدوا بروح من عند الله. وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول:

السيد الأكرم الذي شرف الناس بوجوده هو: (محمد بن عبد الله) من زوجة آمنة بنت وهب الزهرية القرشية. (ابن عبد المطلب) من زوجة فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية. وكان عبد المطلب شيخاً معظماً في قريش يصنّرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدمونه في مهماتهم. (ابن هاشم) من زوجة سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية. (ابن عبد مناف) من زوجة عاتكة بنت مرة السلمية. (ابن قصي) من زوجة حُبَي بنت حُلَيْل الخزاعية، وكان إلى قصي في الجاهلية حجابة البيت، وسقاية الحاج، وإطعامه المسمى بالرفادة، والندوة وهي الشورى لا يتم أمر إلا في بيته، واللواء، لا تعقد راية لحرب إلا بيده. ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار، لكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفخر، وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين، فأعطوا بني عبد المناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب، ثم لبنيه من بعده، أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار، وأقرها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن. وهم بنو شيبعة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له، وكذلك الندوة. وقصي (بن كلاب) من زوجة فاطمة بنت سعد، وهي يمانية من أزد شنوءة. (ابن مرة) من زوجة هند بنت سريز من بني فهر بن مالك. (ابن كعب) من زوجة وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً. (ابن لؤي) من زوجة أم كعب ماوية بنت كعب من قضاة. (ابن غالب) من زوجة أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي. (ابن فهر) من زوجة أم غالب ليلي بنت سعد من هذيل. وفهر هو قريش — في قول الأكثرين — وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة

بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو تميم بن مرة، وبنو عدي بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو تميم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو مُحارب بن فهر، والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح، والذين بضواحيها قريش الطواهر. (ابن مالك) من زوجة جندلة بنت الحارث من جرهم. (ابن النضر) من زوجة عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان. (ابن كنانة) من زوجة برة بنت مُر بن أذ. (ابن خزيمة) من زوجة عوانة بنت سعد بن قيس عيلان. (ابن مُدركة) من زوجة سلمى بنت أسلم من قضاة. (ابن إلياس) من زوجة خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة. (ابن مُضر) من زوجة الرباب بنت حيدة بن معد. (ابن نزار) من زوجة سودة بنت عك. (ابن

(معد) من زوجه مُعانة بنت جوشم من جُرهم. (ابن عدنان).

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين، أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب المستعربة. نسب شريف كما ترى: آباء طاهرون وأمّهات طاهرات، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً. فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مستردّل بل كلهم سادة قادة، وكذلك أمّهات آبائه من أرفع قبائلهنّ شأنًا، ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة، وكل اجتماع بين آبائه وأمّهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله.

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وسنه ثمانى عشرة سنة، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولما دخل عليها حملت بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولدها، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بثّ في أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق. وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة (571) من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، وكانت قابله الشفاء أم عبد الرحمان بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه لجدّه تبشّره، فأقبل مسروراً وسمّاه محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جدّه أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، أمّ أبيه عبد الله، وأول من أرضعه ثويبة أمّ عمه أبي لهب.

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وكانوا يقولون: إن المربى في المدن يكون قليلَ الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلم من السماء وُدَّت البركات على أهل ذلك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات.

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه، فأحدث ذلك عند حليلة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قاتلة: بينما هو وإخوته في بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعا، فشقا بطنه فهما يسوطانه. فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعا لونه، فالترمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا بيتراني فأضجعاني فشقا بطني، فالتمسا فيه شيئا، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو.

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إن أمه أخذته منها، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورق له رقة لم تُعهد له في ولده، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنًا عظيمًا في المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيماً وعليه غيوراً، وكان أبو طالب مُقللاً من المال فبارك الله له في قليله، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة، كما روت ذلك أم أيمن حاضنته، فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له.

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنهُ عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة، أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه، فرق له، وأخذ معه، وهذه هي الرحلة الأولى، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة — وهم بقرب بصرى — بحيرا الراهب، فسألهم عما رآه

في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن، فقالوا: إنه لم يظهر للآن. وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (البقرة: 89).

حرب الفجار

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة حضر حرب الفجار، وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش، وبين قيس. وسببها: أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ لتبّاع له، وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعة وشرف في قومه ليحجزها فجلس يوماً وعنده البراض بن قيس الكناني — وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شرّه — وعروة بن عتبة الرحّال فقال: مَنْ يُحجز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البراض: أنا أُحجزها على بني كنانة، فقال النعمان: إنما أريد مَنْ يُحجزها على الناس كلهم. فقال عروة: أبيت اللعن أكلبّ خليع يحجزها لك؟ أنا أُحجزها على أهل الشيخ والقيصوم من أهل نجد وتهامة. فقال البراض: أو تُحجزها على كنانة يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم، فأسرّها في نفسه، وتربّص له حتى إذا خرج بالتجارة، قتلته غدراً، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر، ويحذرهم قيساً قوم عروة. وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همّت لتدرك ثأرها، حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة، فاقتتلوا، ولما اشتدّ البأس وحميت قيس، احتمت قريش بحرماها، وكان فيهم رسول الله. ثم إن قيساً قالوا لخصومهم: إنّنا لا نترك دم عروة، فموعدنا عكاظ العام المقبل، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً، فلما حال الحولُ جمعت قيس جُموعها وكانت معها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش — وهم حلفاء قريش — وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم، وكان على بني أمية حربين أمية، وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفاً وسناً. وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تتاجزوا الحرب، فكان يوماً من أشدّ أيام العرب هولاً، ولما استحلّ فيه من حُرّمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سُمي يوم الفجار. وكادت الدائرة تدور على قيس

حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم مَنْ دَعَا المتحاربين للصلح على أن يُحصوا قتلى الفريقين، فمَنْ وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حربين أمية، ورهن لسدادها ولده أبا سفيان. وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدوها صغيرات الأمور حتى أَلَفَ الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم.

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول فتم في دار عبد الله بن جُدعان النخعي أحد رؤساء قريش، وكان المتحالفون: بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، وبني أسد بن عبد العزى، وبني زهري بن كلاب، وبني تميم مرة تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى ترد إليه مظلّمته، وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جُدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بكمال الأخلاق، وهذا منها، وقد أقر دين الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا.

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنة عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سمّاه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحاً وربحاً عظيماً، وظهر للسيد الكريم في هذه السفارة من البركات ما حبّبه في قلب ميسرة غلام خديجة.

زواجه خديجة

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربها العظيم سرّت من الأمين عليه الصلاة والسلام وأرسلت إليه تخطبه لنفسها، وكانت سنّها نحو الأربعين، وهي من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالاً، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمّها عمرو بن أسد، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب، فزوجها عمّها. وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئضئ معدّ، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قلٌّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستردّة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمكم خديجة، وقد بذل لها من الصّدّاق كذا. وعلى ذلك تم الأمر. وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة، توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة، وهو ربيب المصطفى عليه الصلاة

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة، جاء سيل جارف فصدَّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها، فإنها كانت رضية فوق القامة، فاجتمعت قبائلهم لذلك، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم. فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، قال: إن الله لا يهلك المصلحين، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، وهناك وجدوا صحافاً نُقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكراً للمتأخرين بعمل المتقدمين. ثم ابتدؤوا في البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهرٌ بغي ولا بيعٌ ربا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم، وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جداراً قصيراً، علامة على أنه من الكعبة، ولما تم البناء ثمانية عشر ذراعاً بحيث زيد فيه عن أصله تسعة أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد إليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عمّ خالد بن الوليد فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: نكل الأمر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري. فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية

من الثوب، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعوه فيه وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن من الله عليهم بعقل مثل أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يرضي جميعهم. ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا، لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التي يحجون إليها، فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة، وهو أول بيت وُضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم، قال تعالى في سورة آل عمران: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا { (آل عمران: 96، 97) وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُرهم فلما بَغُوا وظلموا مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ اجتمعت عليهم خزاعة وأجلّوهم عن البيت، ووليته خزاعة حيناً من الدهر، ثم أخذته منهم في عهد قصيين كلاب، وبسببه أمّنوا في بلادهم، فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين، وامتّن الله عليهم بذلك في تنزيله، فقال في سورة العنكبوت: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} (العنكبوت: 67).

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً، بل ولد يتيماً عائلاً فاسترضع في بني سعد، ولما بلغ مبلغاً يمكنه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه. ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغها أمر لا بدّ منه، لأنهم لو وجدوا أغنياء لأهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية منفتحة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهّد الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى، وإبراهيم. وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة بل كلهم سواء؛ تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم في الامتناع عن التكاليف على الدنيا والتهافت عليها، وذلك سبب البلايا والمحن. وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري. وهذه أيضاً من بالغ الحكّم فإن الإنسان إذا استرعى الغنم — وهي أضعف البهائم — سكن قلبه الرأفة واللفظ تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هُذّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال. ولما شبّ عليه الصلاة والسلام كان يتجر، وكان شريكه السائبين أبي السائب. وذهب بالتجارة لخديجة — رضي الله عنها — إلى الشام على جُعل يأخذه. ولما شرفت خديجة بزواجه، وكانت ذات يسار، عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله. وحقّق الله ما امتنّ عليه به في سورة الضحى بقوله جلّ ذكره: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ

مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} (الشورى: 52).

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضل قومه مروءة، وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، فسموه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء. حتى شهد له بذلك ألد أعدائه النضربن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثاً وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيْبَ وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر. قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه. ولما سأل هرقلُ ملك الروم أبا سفيان قائلًا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، ورد ذلك في أول صحيح البخاري.

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وبُغِضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عبداؤها. وقال عليه الصلاة والسلام: «لما نشأت بُغِضْتُ إِلَيَّ الأوثان، وبُغِضْتُ إِلَيَّ الشعر، ولم أهُمَّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لـغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمرُ كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئتُ أول دارٍ من مكة أسمع عزفاً بالدُفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذني فَنَمْتُ فما أيقظني إلا مسَّ الشمس ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك». وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً، وذلك كله من الصفات التي يُحَلِّي اللهُ بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقّي وحيه، فهم معصومون من الأذناس قبل النبوة وبعدها، أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيُسند إليهم، وأمّا بعدها فليكونوا قدوة لأممهم. عليهم من الله أفضل الصلوات وأتمّ التسليمات.

ما أكرمه الله به قبل النبوة

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليلة الذين كان مسترضعاً فيهم، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجديبين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضرعاها لتسيل لبناً، ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته:

وإذا سخرَ الإله أناساً السعيدِ فإنَّهم سُعداءُ ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظّ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر، لا يعرف من قوة الله شيئاً، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب.

ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام، حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مُشاركاً له في سفره، وهذا ما حَبَّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأنًا. ولذلك لما جاءت النبوة كانت أسرع الناس إيماناً به، ولم تنتظر آيةً أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق، وما سمعته من خوارق العادات.

ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار، فكان إذا خرج لحاجته أبعده حتى لا يرى بناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وقد حدّث بذلك عن نفسه. وليس في ذلك كبير إشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله، فعصا موسى النقت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحولت حية تسعى ثم رجعت كما كانت، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين. وكذلك غيره من الأنبياء سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم.

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن، ونوّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام: «وسوف أُقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء أمره به، ومن لم يُطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترى عليّ بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم أمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك: إن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه». ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام، مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح، فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان (بحيي) يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا أنت النبي؟ فقال: لا، فقالوا ما بالك إذا تَعَمَدُ إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي؟ فهذه تدلّ على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى، وقد نصّت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى، وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفترى على الله يُقتل، ويُشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) وَاللَّهُ

يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة: 67) أكان يعجز الله — وهو القادر على كل شيء — أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ

وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّوْرِ (24)

وروى القاضي عياض في الشفا أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45)

وروي مثله عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تُعْمِه الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأخبار. وفي بعض طرق الحديث: «ولا صَخَّابٍ في الأسواق ولا قوَالٍ للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأولّف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشنتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس». وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة فقال — وهو الصادق الأمين —: عبدي أحمد المختار مولده مكة ومهاجره المدينة — أو قال: طيبة — وأمته الحمّادون الله على كل حال.

تبشير الإنجيل

بشّر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدقّه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصف: 6) وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبيّنا فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وإنه يعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} (النجم: 3 — 4) وقد ورد في إنجيل برنابا — الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب الجهالة — ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة.

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأخبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر. فقد حدثت عاصمبن عمر بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إنما دعانا للإسلام — مع رحمة الله تعالى لنا — ما كنا نسمع من أخبار يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فأمناً وكفروا. وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم أن هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة. وكان أمية بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا. وحدثت سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً فكان يقول له: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان. ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض لم يُهن كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وفادة رسله. ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من ردّ ردّاً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوة يرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم

فأجابوا بالتي هي أحسن، وأما ما سُمع من الهوائف والكهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر. وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر. ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقول حجته ومؤيد لدعوته. وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأملته ترشد هداك الله إلى الصراط السوي.

بدء الوحي

لما بلغ عليه الصلاة والسلام سن الكمال وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من

ظلمات الجهالة إلى نور العلم وكان ذلك في أول فبراير سنة 610 من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي، تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان في 17 رمضان سنة 13 قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو سنة 610. وأول ما بدى به الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدرج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال. ومن الصعب جداً على البشر تلقي الوحي من الملك لأول مرة، ثم حَبَّب إليه عليه الصلاة والسلام الخلاء، لئيتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله فإن في العزلة صفاء السريرة. وكان يخلو بغار حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر. وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزوج لمتلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فإنه عليه الصلاة والسلام أمي لم يتعلم القراءة قبلاً. فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء، فأخذه فغطه الثالثة، ثم أرسله

فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم (5) وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنك من أرضنا أو لتعودن في ملبتنا (إبراهيم: 13) ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام قال: وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معصداً). ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

فترة الوحي

وَقَتَرَ الوحي مدة لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً، ليشته شوق الرسول للوحي، وقد كان، فإن الحال اشتد به عليه الصلاة والسلام حتى صار كلما أتى نروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها، حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيبتدى له الملك قائلاً: أنت رسول الله حقاً، فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحي.

عود الوحي

فبينما هو يمشي إذ سمع صوتاً من السماء فرفع إليه بصره، فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس بين السماء والأرض، فرعب منه لتذكر ما فعله في المرة الأولى فرجع وقال: دثروني، دثروني. فأنزل الله تعالى عليه: {بِأَيِّهَا الْمُدْتَرِّ (1) فَمُ فَاَنْزِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3) وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرْ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)}

فقام عليه الصلاة والسلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جُفَاءَ لا دين لهم، إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزّة والأنفة، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه. فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلاً تُسَلَّبَ منه عظمته. وكان أول من سَطَعَ عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زوجة، وعليين أبي طالب ابن عمه، وكان مُقيماً عنده يُطعمه ويسقيه ويقوم بأمره، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مُقلِّباً كثير الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام لعمّه العباس بن عبد المطلب «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله، تأخذ واحداً، وأنا واحداً»، فانطلقا وعرضا عليه الأمر، فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب، وأخذ عليه الصلاة والسلام عليّاً، فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام، فكان تابعاً للنبي في كل أعماله، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان، واتّباع الهوى، وأجاب أيضاً زيد بن حارثة شريحيل الكلبي، مولاه عليه الصلاة والسلام، وكان يُقال له زيد بن محمد، لأنه لما اشتراه أعتقه وتبنّاه، وكان المتبنّى معتبراً كابن حقيقي يرث ويورث، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التي زوجها لمولاه زيد. وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة التيمي القرشي، كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعلم ما أتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبها، فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله

إلا الله وأنت رسول الله. وكان رضي الله عنه صدرأ معظماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعف الناس، سخياً، يبذل المال، محبباً في قومه، حسن المجالسة، ولذلك كله كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير، فكان يستشير في أموره كلها، وقال في حقه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كيوه غير أبي بكر». وكانت الدعوة إلى الإسلام سرّاً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا، فيصعب استسلامهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا من يثق به. ودعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش، فأجابه جمع منهم: عثمان بن عفان بن أبي العاصبن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، ولما علم عمه الحكم بإسلامه، أوثقه كتافاً وقال: ترغب عن دين آباءك إلى دين

مستحدث؟ والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره. ومنهم: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وكان عمّ الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه، فقواه الله بالثبات، وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام.

ومنهم: عبد الرحمان بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهر بن كلاب القرشي الهاشمي، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسمّاه عليه الصلاة والسلام عبد الرحمان.

ومنهم: سعد بن أبي وقاص مالكن أهيبين عبد مناف بن زهر بن كلاب الزهري القرشي. ولما علمت أمه حمنة بنت أبي سفيان أمية بإسلامه قالت له: يا سعد بلغني أنك قد صبأت، فوالله لا يظنني سقف من الحر والبرد، وإنّ الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد. وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه أمر أمه فنزل في ذلك تعليماً قول الله تعالى في سورة العنكبوت: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8) — ف { من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم. وفي ختام هذه الآية فائدتان: التنبية على أن الجزاء إلى الله فلا تحدت نفسك بجفوتها لإشراكها، والحض على الثبات في الدين لئلا ينال شرّ الجزاء في الأخرى.**

ومنهم: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم مرة التيمي القرشي وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به، ورأى الدين متيناً بعيداً عما العرب من المثالب، بادر إلى الإسلام. **ومن ممن سبقوا إلى الإسلام: صهيب الرومي وكان من الموالي، وعمّارين ياسر العنسي وقد قال رضي الله عنه: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية.**

ومن السابقين الأولين: عبد الله بن مسعود، كان يرعى الغنم لبعض مشركي قريش، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه عليه السلام من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله، وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يُحجب، ويمشي أمامه، ويستتره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه.

ومن السابقين الأولين: أبو ذر الغفاري وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث، ولما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم اتنتي. فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت. فتزوّد وحمل قربة له فيها ماء، حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله، حتى إذا أدركه الليل رآه عليّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبح احتلم قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أضيف به بالأمس؟ فأقامه، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليّ مثل ذلك، ثم قال له علي: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني ففعلت، ففعل فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى ندخل مدخلي ففعل. فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيتك أمري»، قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبّ عليه وقال: ويلكم أولستم تعلمون أنه من

غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه؟ فأنتزعه منهم، ثم عاد من الغد لمتلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبّ العباس عليه. رواه البخاري. وكان رضي الله عنه من أصدق الناس قولاً، وأزهدهم في الدنيا. ومن السابقين: سعيد بن زيد العدوي القرشي، وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، زوج العباس بن عبد المطلب، وعبيد بن الحارث بن عبد المطلبين هاشم، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي القرشي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوجه أم سلمة، وعثمان بن مظعون الجمحي القرشي، وأخوه قدامة، وعبد الله، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي القرشي.

ومن السابقين الأولين: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي، كان أبوه سيد قريش إذا اعتم لم يعتّم قرشي إجلالاً له، وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية، فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء إليه وقال: إلام تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وأن لا

تقتل ولدك خشية الفقر، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وأن لا تقتل نفساً حرم الله إلا بالحق، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوي قرباك، وأن توفي لمن عاهدت» فأسلم رضي الله عنه، وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت، فانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلزمه ويعيش معه، ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد.

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في دين الإسلام، ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم، وذوي الثروة منهم، ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه الصلاة والسلام كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول، بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالاً وأنعم عيشة، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم، حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى.

الجهر بالتبليغ

مضت كل هذه المدة والنبى عليه الصلاة والسلام لا يُظهر الدعوة في مجامع قريش العمومية، ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش، فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلي مستخفياً، ولما دخل في الدين ما يربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم، اختار لذلك دار الأرقميين أبي الأرقم — وهو ممن ذكرنا إسلامهم — ومكث عليه الصلاة والسلام يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحجر: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنَّ عَصَاكَ (الشعراء: 215، 216) أَي: العشييرة والأقربون فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (الشعراء: 216) فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبدأ أو لنار أبدأ». فتكلم القوم كلاماً لئياً غير عمه

أبي لهب الذي كان خصماً لدوداً فإنه قال: خذوا على يديه قبيل أن تجتمع عليه العرب، فإن أسلمتموه إذاً نلتم، وإن منعتموه قتلتم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا، ثم انصرف الجمع.

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزؤوا به في مجالسهم فكان إذا مرّ عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء لا يزيدون على ذلك، فلما عاب آلهتهم، وسقّه عقولهم وقال لهم: «والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم»، ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرّة على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه، فطلبوا منه أن يخلي بينهم وبينه أو يكفّه عما يقول، فردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله لما يريد لا يصدده عن مراده شيء، فتزايد الأمر، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحث بعضهم بعضاً على ذلك. ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منّا، وإنّا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه عقولنا، وعيب آلهتنا. فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمّم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له. قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} (170) وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) قَالَ مُتْرَفُوهَا

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} (الزخرف: 23). ولما شبّههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال: {قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} (24)

الإيذاء

ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سمّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين.

فأولهم وأشدهم: أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، قال يوماً: يا معشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشمم آلهتكم، وتسفيه أحلامكم، وسب آبائكم، إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضختُ به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغداً عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو إلى صلاته، وقريش في أندية ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه من الفرع ورمى حجره من يده. فقام إليه رجال من قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم، فلما دنوت منه عرض لي فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قطَّ همَّ بي أن يأكلني، فلما ذكر ذلك لرسول الله قال: ذاك جبريل ولو دنا لأخذه. وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسول عن صلاته في البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلي: ألم أنك عن هذا؟ فأغظ له رسول الله القول وهدده، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة اقرأ: كَلَّا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية (15) ناصية كاذبة خاطئة (16) فلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ نَادِيَهُ (19)

ومن أندية للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري قال: كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان فيلقبه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبين أبي معيطين أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القدر ورمته. فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال: «اللهم عليك بالملأ من قريش» وسمى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قتلوا يوم بدر.

ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن هذا ابتاع أجماً من رجل يقال له الإراشي فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله، فدلوه على رسول الله ليُنصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول، فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال: مَنْ هذا؟ قال: محمد، فخرج منتقماً لونه فقال له الرسول: أعطِ هذا حقه، فقال أبو جهل: لا تبرح حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه، فقالت قريش: ويحك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت قال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي حتى سمعت صوته فملئت منه رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله. ومن جماعة المستهزئين: أبو لهيب عبد المطلب، عم رسول الله كان أشدَّ عليه من الأبعاد، فكان يرمي

القذر على بابيه لأنه كان جاراً له، فكان الرسول يطرحه ويقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟ وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حربين أمية، فكانت كثيراً ما تسب رسول الله، وتتكلم فيه بالنائم، وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب.

ومن المستهزئين: عقبتهين أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله، وكان يعمل معه كأبي لهب، صنع مرة وليمة ودعا لها كبار قريش وفيهم رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: «والله لا أكل طعامك حتى تؤمن بالله»، فتشهد فبلغ ذلك أبين خلف الجمحي القرشي، وكان صديقاً له فقال: ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء، دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له. قال أبي: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه، وتبزق في وجهه، وتلطم عينه، فلما رأى عقبه رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه في سورة الفرقان: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ { غافر: 28 }.

ومن جماعة المستهزئين: العاصبن وائل السهمي القرشي والد عمرو بن العاص، كان شديد العداوة لرسول الله، وكان يقول: غرَّ محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله ردّاً عليه في دعواه في سورة الجاثية: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَوْتِينَ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَكَتَنُكَ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرْتُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80)}

ومن جماعة المستهزئين: الأسودين عبد يغوث، الزهري، القرشي، من بني زهرة، أحوال رسول الله، كان إذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض، استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خشن، وكان يقول لرسول الله سخريّة: أما كلمت اليوم من السماء؟ ومنهم: الأسودين عبد المطلب الأسدي، ابن عم خديجة، كان هو وشيعته إذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة المطففين: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ (32)

ومنهم: الوليد بن المغيرة، عم أبي جهل، كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لقومه بني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلو، فقالت قريش: صباً والله الوليد، لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فتوجه وقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يُهوِّس؟ وتقولون: إنه كاهن فهل رأيتموه ينكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتجّ النادي فرحاً فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً لرسوله: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهْدتُ لَهُ تَمْهيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًاً (16) سَأرُّهُقَهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَفَالَ إِنِّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) إِنِّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأصْلِيهِ سَعَرَ (26)

وأنزل فيه أيضاً في سورة ن: ولا تطع كل حلافٍ كثير الحلف وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف مهينٍ { حقير وأراد به الكذاب لأنه حقير في نفسه همّازٍ { عيَاب طعان مَسَاءَ بَنِمِيمٍ { بنقل الأحاديث للإفساد بين الناس مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنْيَمٍ عُنُلُ { غليظ جاف بعد ذلك زَيْمٍ { دخيل أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ { كناية عن الإذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه، ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة، كالأنفة وهي: الحمية. فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

ومن المستهزئين: النضر بن الحارث العبدي من بني عبد الدار بن قصي. كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم، قال النضر: هلموا يا معشر قريش فإني أحسن منه حديثاً ثم يحدث عن ملوك فارس، وكان يعلم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين وفيه نزل في سورة لقمان: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (6) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ الْإِيمِ (7) { الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ (96)

إسلام حمزة

وكان بعض إيدائهم هذا سبباً لإسلام عمه حمزة بن عبد المطلب، فقد أدركته الحمية عندما عيرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إلى ذلك الشقي وغازبه وسبه، وقال: كيف تسبّ محمداً وأنا على دينه؟ ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً، وأشدّهم غيرة على المسلمين، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي أسد الله.

وكما أودى الرسول عليه الصلاة والسلام، أودى أصحابه لاتباعهم له، خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه، وتردّ كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلوّاً في أعينهم ما دام فيه رضاء الله، فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتمّ أمره على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال جلّ ذكره في سورة القصص: وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

ومن الذين أودوا في الله: بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف القرشي، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ. لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله. وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء — وهي الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لَنَضِجَتْ — ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحد أحد. مرّ به أبو بكر يوماً فقال: يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين، حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. فاشتراه منه وأعتقه فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21) { (الليل: 14 — 21) بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله. وقد نبّه الله جلّ ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق رضي الله عنه وأرضاه، وقد أعنق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليتهم.

ومنهم: حمّامة أم بلال، وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدري ما يقول، وأبو فكيهة، كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف.

ومنهم امرأة تسمى زنيرة عذبت في الله حتى عميت فلم يزلها ذلك إلا إيماناً، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم؟ لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه أفتسبقنا زنيرة إلى رشد؟ فأنزل الله

في سورة الأحقاف: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)

وممن عذب في الله: عمارين ياسر، وأخوه، وأبوه، وأمه، كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «صبراً آل ياسر فمعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت». أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله، وأما هو فتقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر، فإن أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها، فقال المسلمون: كفر عمار، فقال عليه الصلاة والسلام: «عمار ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه» وأنزل الله في شأنه استثناءً في حكم المرتد، فقال جل ذكره في سورة النحل: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106)

وممن أودى في الله: خبابين الأرت، سبى في الجاهلية فاشترته أم أنمار، وكان حداداً وكان النبي يألفه قبل النبوة، فلما شرفه الله بها أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحمّاة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيماناً. وجاء خباب مرة إلى رسول الله وهو متوسد برودة في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال: «إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه». قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحال الشديدة التي لا يتصور فيها عقل العقلاء، وأنبأ النبلاء، قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة، اللهم إلا أن ذلك وحي يوحى إليه، ثم أنزل الله تعالى تنبيهاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت: الم (1) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ: 3 { (العنكبوت: 1 — 3).

وممن أودى في الله: أبو بكر الصديق، ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة، فخرج حتى أتى برك الغمام فلقيه ابن الدغنة (وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة) فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: منّا يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه، وطاف في أشراف قريش، فقال لهم: أبو بكر لا يخرج مثله. أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره،

فليصلَّ فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإننا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسأله أن يردَّ إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نُخفركَ ولسنا مقرِّين لأبي بكر الاستعلان. فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: لقد علمت الذي عاقدت لك عليه. فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تُرجع إليّ ذمتي، فإنني لا أحب أن تسمع العرب

أني أخفرتُ في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإنني أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله. رواه البخاري. وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر رضي الله عنه. وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذيةٍ لحقته، ولكن كل ذلك ضاع سدًى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم، فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شيء دونه سهلاً.

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يُجدهم نفعاً، بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم عتبة بن ربيعة العيشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف — وكان سيداً مطاعاً في قومه —: يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرضُ عليه أموراً علَّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكفَّ عنا؟ فقالوا: يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه. فذهب إلى رسول الله وهو يصلي في المسجد، وقال: يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ أحلامهم، وعيتَ آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ من مضي من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال عليه الصلاة والسلام: «قل يا أبا الوليد أسمع».

فقال: يا ابن أخي إن كنتَ تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريدُ شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونك، وإن كنتَ تريدُ ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رتياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى، فقال عليه الصلاة والسلام: «فقد فرغتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم، «قال: فاسمع مني» فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم (1) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ} (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَعُنْكُمُ لِلتَّكْفُرِ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِّن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَا لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14)

فأمسك عتبه بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبه سأله فقال: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيي.
ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته فأنزل الله تعالى في ذلك: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ (يونس: 15).

وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به، وهو أنه بينما الرسول عليه الصلاة والسلام مع كبراء قريش وأشرفهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى — وهو ممن أسلموا قديماً — والنبى مشغول بالقول، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم، فقال له عبد الله: يا رسول الله علمني مما علمك الله وأكثر عليه القول، فشق ذلك على الرسول، وكره قطعه لكلامه، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف، فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة

عبس: عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَ يَزْكَى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنْ
اسْتَعْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ
تَلْهَى (10)

ولمّا رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا في باب آخر، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا، وقالوا: يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك وهي أن تشق لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله: «أشهدوا» وهذه القصة رواها عبد الله مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة، ورواها عبد الله بن عباس وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالماتر وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى في أول سورة القمر: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَهُ (الإسراء: 90 — 93) ولم يجبههم الله إلا بقوله: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} (الإسراء: 93) لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره في سورة الأنعام: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} (الأنعام: 109) وكيف يرجي الخير ممن قالوا كما في سورة الأنفال: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الأنفال: 32) ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، وهذه سنة

من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً، وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كيلا يحلّ بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} (الإسراء: 59). وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هيرودس طلب منه آية فلم يجبه إلى طلبه، فلما رأى ذلك سخر منه وردّه إلى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه، وذلك المذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا.

هذا ولمّا رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا: {حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ} (الأنبياء: 68) كما في سورة الأنبياء أما

هُؤْلَاءِ فَازْدَادُوا بِالْأَذَى عَلَى كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ رَجَاءَ صَدَّهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ يَتْرَكُوا بَاباً إِلَّا وَلَجَوْهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ: «تَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْمَعُكُمْ»، فَسَأَلُوهُ عَنِ الْوَجْهِ فَأَشَارَ إِلَى الْحَبْشَةِ.

هجرة الحبشة الأولى

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَجَهَّزَ نَاسٌ لِلخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِرَاراً بِدِينِهِمْ كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَذِهِ هِيَ أَوَّلُ هِجْرَةٍ مِنْ مَكَّةَ، وَعَدَّةُ أَصْحَابِهَا عَشْرَةُ رِجَالٍ وَخَمْسُ نِسْوَةٍ، وَهُمْ: عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ وَزَوْجُهُ رَقِيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَبُو سَلْمَةَ وَزَوْجُهُ أُمُّ سَلْمَةَ، وَأَخُوهُ لِأُمِّهِ أَبُو سَبْرَةَ بْنِ أَبِي رُهْمٍ، وَزَوْجُهُ أُمُّ كَلْثُومٍ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَزَوْجُهُ لَيْلَى، وَأَبُو حَذِيفَةَ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَزَوْجُهُ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَانِ بْنِ عَوْفٍ، وَعَثْمَانُ بْنُ مِطْعُونٍ، وَمِصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، وَسُهَيْلُ بْنُ الْبَيْضَاءِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَجُلَّةٌ مِنْ قَرِيشٍ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ ————— فِيمَا رَوَى ابْنُ هِشَامٍ ————— عَثْمَانُ بْنُ مِطْعُونٍ، فَسَارُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، وَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى الْبَحْرِ، اسْتَأْجَرُوا سَفِينَةً أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى مَقْصَدِهِمْ، فَأَقَامُوا آمِنِينَ مِنْ أَدَى يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا الْقَلِيلُ.

إسلام عمر

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَسْلَمَ الشَّهْمُ الْهَمَامُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْعَدَوِيُّ الْقُرَشِيُّ بَعْدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ كِرَاهِيَةِ الْمُسْلِمِينَ وَشِدَّةِ أَذَاهُمْ. قَالَتْ لَيْلَى ————— إِحْدَى الْمُهَاجِرَاتِ لِأَرْضِ الْحَبْشَةِ مَعَ زَوْجِهَا —————: كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي إِسْلَامِنَا، فَلَمَّا رَكِبْتُ بَعِيرِي أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّهَ إِلَى أَرْضِ الْحَبْشَةِ إِذَا أَنَا بِهِ، فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقُلْتُ: قَدْ آذَيْتُمُونَا فِي دِينِنَا، نَذْهَبُ فِي أَرْضِ اللَّهِ حَيْثُ لَا نُوذَى، فَقَالَ: صَحَبَكُمُ اللَّهُ، فَلَمَّا جَاءَ زَوْجِي عَامِرٌ أَخْبَرْتَهُ بِمَا رَأَيْتُ مِنْ رِقَّةِ عَمْرٍ، فَقَالَ: تَرْجِينَ أَنْ يُسَلَّمَ؟ وَاللَّهِ لَا يُسَلِّمُ حَتَّى يُسَلِّمَ حِمَارَ الْخَطَّابِ وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ يَرَاهُ مِنْ قَسْوَتِهِ وَشِدَّتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ حَصَلَتْ لَهُ بَرَكَةٌ دَعَاةَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ قَالَ قَبِيلَ إِسْلَامِهِ: «اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِعَمْرٍ». وَكَانَ إِسْلَامُهُ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ الَّتِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ بِإِسْلَامِهِ مَا رَجَاءَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: مَا زَلْنَا أَعَزَّةً مِنْذُ أُسْلِمَ عَمْرٌ. فَإِنَّهُ طَلَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يُعْلَنَ صَلَاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ فَفَعَلَ وَقَدْ أَدْرَكَ الْكُفْرَ كَابَةً شَدِيدَةً حِينَمَا رَأَوْا عَمْرَ أُسْلِمَ، وَكَانُوا قَدْ أَرَادُوا قَتْلَهُ حَتَّى اجْتَمَعَ جَمْعٌ حَوْلَ دَارِهِ يَنْتَظِرُونَهُ، فَجَاءَ الْعَاصِبُ بْنُ وَائِلٍ السُّهْمِيُّ وَهُوَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ حُلَفَاءُ بَنِي

عدي قوم عمر وعليه حُلَّة حَيْرَة، وقميص مكفوف بحرير، فقال لعمر: ما بالك؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال: لا سبيل إليك فأنا لك جار، فأمن عمر، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبا. قال: لا سبيل إليه. فرجع الناس من حيث أتوا.

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد — وفي الكثرة بعض الأُنس — وأضيف إلى ذلك أنهم أشرف قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غريبة بهذه الحالة.

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة، وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم، وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد: **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (20)**

وهذا مما لا تجوز روايته إلا من قبلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته، وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر، أما الحديث فسنده ومنتنه قلفان، فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفا: «لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم»، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء نم ويجوز ذلك عليهم، فبعد ذكر الأصنام قال: **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (النجم: 23)**. فالكلام غير مُنْتَظَم، ولو كان ذلك قد حصل لآخذة الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة، فكيف بهذه؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سمأهم الله سفهاء وأنزل فيهم في سورة البقرة: **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (البقرة: 142)**. ولكن لم يُسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم أن قال: ما لك دَمَمْتَ آلهتنا بعد أن مدحتها؟ وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مُهْج الرجال.

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة يقولون أثناء كلامهم: إن الهجرة كانت في رجب، والرجوع كان في شوال، ونزول سورة النجم كان في رمضان، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد، والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذلك

الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة والإياب منها لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهّل السير في البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة، فلا غرابة بعد ذلك إن قلنا إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين، ولكن الحمد لله فقد منّ علينا بحفظ كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مُفترٍ كذاب ففي السورة نفسها: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3)}

والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود: أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ والنجم فسجد، وسجد مَنْ كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصي وضعه على جبهته وقال: يكفيني هذا، فرأيته قُتِلَ بعد كافريناً. وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون، بل الذي يفيد قوله: فرأيته قُتِلَ بعد كافريناً أنه كان مسلماً ثم رأيته ارتدّ، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا، منهم: علي بن أمية بن خلف. هذا، ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا مَنْ وجد له مُجيراً، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم يرَ أن يكون مرتاحاً وإخوانه معذبون.

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش، عرضوا على بني عبد مناف، الذين منهم الرسول عليه الصلاة والسلام، دية مضاعفة، ويسلمونه، فأبوا عليهم ذلك، ثم عرضوا على أبي طالب أن يُعطوه سيّداً من شبانهم يتبناه، ويسلم إليهم ابن أخيه، فقال: عجباً لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولديّ عبد مناف وإخراجهم من مكة، والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم — بسبب ذلك — في شعب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب فإنه كان مع قريش، وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب.

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية عشرة امرأة، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود، وعبيد الله بن

جش، وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون: أبو موسى وبنو عمه. ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعُمارقبن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليُسَلِّمَ المسلمين، فرجعاً شراً رجعة، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخبار ذمته في قوم لأذوا به، أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية.

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشرف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة، وهم: هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث العامري، وهو أعظمهم في ذلك بلاءً، وزهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمه الرسول عاتكة، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختريين هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي، وانفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلأى لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة. فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك. وصدق على ما قيل هشام بن عمرو، فقام إليها المطعم بن عدي فشققها، وكانت الأربعة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة.

وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجري الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها في كتبهم، وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك، فقرأ عليهم القرآن فأمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصباتم فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، فأنزل الله في ذلك قوله في سورة القصص: الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُنلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ
اُنْتِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ { (الأنفال: 32).

وفاة خديجة رضي الله عنها

وبعد خروجه عليه الصلاة والسلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد
زوجها رضي الله عنها، وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها، ولا غرابة، فهي أول
نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم. فمنها زينب
وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاصين الربيع، وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي
طالب بعد وفاة فاطمة، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان؛ الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها إلى
الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها، ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب،
وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً، ولم يعيش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلاً.
ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله، ومحاجزة
الكفار عنه لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر.

زواج سودة

وعقد عليه الصلاة والسلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد
أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني
عمها، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي
عنها، فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزواج رجل آمن به، ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من
الغلظة وكراهة الإسلام لفتتوها، وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسباً وشرفاً.

زواج عائشة رضي الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها، ولم يتزوج
عليه الصلاة والسلام بكرة غيرها، ودخل عليها بالمدينة، أما سودة فدخل عليها بمكة.
وبعد وفاة خديجة بنحو شهر، توفي عمه أبو طالب، الذي كان يمنعه من أذى أعدائه، ومع أنه كان لا

يُكَذِّبُ رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ بَلْ يَعْتَقِدُ صَدَقَهُ لَمْ يَنْطِقْ بِالشَّهَادَتَيْنِ حَتَّى آخِرِ لِحِظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ، وَفِيهِ نَزَلَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (56)

وقد سُمِّيَ رَسُولُ اللَّهِ هَذَا الْعَامَ الَّذِي فَقَدَ فِيهِ زَوْجَهُ وَعَمَهُ عَامَ الْحَزَنِ. وَلَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قَرِيشٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مَا لَمْ يُمْكِنُهَا نَيْلُهُ فِي حَيَاةِ أَبِي طَالِبٍ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَيْهِ حَتَّى كَانُوا يَنْثُرُونَ التَّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ سَائِرٌ، وَيَضَعُونَ أَوْسَاحَ الشَّاةِ عَلَيْهِ فِي صَلَاتِهِ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ كَفَارٌ قَرِيشٌ مَرَّةً يَنْجَازِبُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ فَمَا تَقْدِمُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَخْلُصَهُ مِنْهُمْ لَمَّا هُمَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّعْفِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ فَإِنَّهُ تَقْدِمُ، وَقَالَ: أَنْتَقُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ! {غَافِرٌ: 28}.

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى تقيف بالطائف يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتم أمر ربه، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خوولة، فإن أم هانئ بنت عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم منصور وهم حلفاء تقيف، فلما توجه إليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفي، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردوا عليه رداً قبيحاً، ولم ير منهم خيراً، وحينذاك طلب منهم أن لا يثيبيوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم، فلم تفعل تقيف ما رجاه منهم عليه الصلاة والسلام، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمون بالحجارة، حتى أدموا عقبه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرم واستظل بها، وكانت بجوار بستان لعنبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه وكانا في البستان، فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلاً: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي» فلما رآه ابنا ربيعة رقاً له وأرسلا إليه يقطف من العنب مع مولى لهما نصراني اسمه عداس. فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال عداس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له عليه الصلاة والسلام: «من أي البلاد أنت وما دينك؟» فقال: نصراني من نينوى، فقال له عليه الصلاة والسلام: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مئى؟» قال: وما علمك بيونس؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس، فلما سمع ذلك عداس أسلم، وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره، وقال: إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه

معك، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» فقال جبريل: صدق من سماك الرؤوف الرحيم.

ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممن ينتمون إلى موسى صلوات الله عليه، فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم نزل في سورة الأحقاف: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِمُكَم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (32) قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2)}

الاحتفاء بالمطعمين عدي

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة، لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى المطعمين عديين نوفلين عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره فأجاب إلى ذلك، وتسليح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف، فقال له بعض المشركين: أمجبر أنت أم تابع؟ فقال بل مجبر، قالوا: إذا لا تخفر نمتك.

وفد دوس

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة الطفيلين عمرو الدوسي، من قبيلة دوس، عشيرة أبي هريرة الصحابي الشهير، وكان الطفيل شريفاً في قومه شاعراً نبيلاً، فلما قرأ عليه القرآن أسلم، فقال له رسول الله: «أذهب إلى قومك فادعهم إلى الإسلام» ودعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم اهدِ دوساً»، فتوجه إليهم الطفيل ودعاهم فأمن بدعوته كثير منهم. وستأتي وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه في المدينة.

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، أما الإسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإثلياء ورجوعه من ليلته، وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي، وقد قال جمهور أهل السنة: إن ذلك كان بجسمه الشريف، وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه، وتقول: من قال إن محمداً رأى ربه

فقد أعظم الفرية على الله، والإسراء المذكور في القرآن الكريم، قال تعالى في أول سورة الإسراء: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى () ، {1: (الإسراء: 1)}.

وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنّة، وأصحّ أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضي عياض في شفاؤه عن أنسبن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتيت بالبُرّاق — وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه — قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول، ففتح لنا وإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. قال تعالى في سورة مريم: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها، فيصلّي ركعتين إذا ظهر الفجر، وأربع ركعات إذا زالت الشمس ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء، وثلاثاً إذا غربت، وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه الصلاة والسلام قبل مشروعية الصلاة يصلّي ركعتين صباحاً، ومثلهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام.

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجد من قريش منعة من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم، أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج في المواسم العربية — وهي أسواق كانت العرب تعقدّها للتجارة والمفاخرة — ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه، فكان بعضهم يردّ رداً جميلاً، وآخرون رداً قبيحاً. وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مسيئة الكذاب، وطلب منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده، فقال لهم: «الأمر لله يضعه حيث يشاء». وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب

وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان: إحداهما من ولد الأوس، والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين، فكانوا دائماً في شقاق ونزاع، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم: بنو قَيْنِقَاع، وبنو قُرَيْظَةَ وبنو النَّضِيرِ وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة، وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يُبعث قد قرب زمانه. ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الألفه، حالفوا اليهود على أنفسهم، فحالف الأوس بنو قريظة، وحالف الخزرج بنو النضير وبنو قينقاع، وآخر الأيام بينهم يوم بُعث قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبد الله بن أبي سلول من الخزرج، وأبو عامر الراهب من الأوس، ولذلك كانت عائشة تقول: كان يوم بُعث يوماً قدّمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج، فأرسلوا إياسبن معاذ وأبا الحيسر أنسبن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش، فلما جاؤوا مكة جاءهم رسول الله وقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده، ولا تشركوا

به شيئاً، وقد أرسلني الله إلى الناس كافة» ثم تلا عليهم القرآن، فقال إياسبن معاذ: يا قوم هذا والله خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر وقال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا، فسكت.

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرّض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة، وكلهم من الخزرج وهم: أسعدبن زرارة، وعوفبن الحارث من بني النجار، ورافعين مالك من بني زريق، وقُطَيْبِين عامر من بني سلمة، وعقبتهين عامر من بني حرّام، وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدي، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه، فقال بعضهم لبعض: إنه للنبي الذي كانت تعدّكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فآمنوا به وصدّقوه، وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب.

العقبة الأولى

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلاً، منهم عشرة من الخزرج، واثنتان من الأوس، وهم: أسعدبن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافعين مالك، وذكوان بن قيس، وعُبادتين الصامت، ويزيدبن ثعلبة، والعباسبن عباد، وعقبتهين عامر وقطبةين عامر، وهؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثمبن النّيهان، وعُويمين ساعدة وهما من الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة، وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان

يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف، فإن وقوا فلهم الجنة، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب، وهذه هي العقبة الأولى.

فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مصعبين عمير العبدي وعبد الله ابن أم مكتوم — وهو ابن خالة خديجة — يُقرآنهم القرآن، ويفقهانهم في الدين، ونزل مصعب على أحد المبايعين أبي أمامة أسعدين زرارة، وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام. وبينما هو في بستان مع أسعدين زرارة إذ قال سعدبن معاذ — رئيس قبيلة الأوس — لأسيدين حُضير ابن عم سعد: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسقَّهان ضعفاءنا لترجرهما؟ فقام لهما أسيد بحريته، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تُسقَّهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة. فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفنا عنك ما تكره، فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الإسلام، وهداه الله له فتشهد ورجع إلى سعد، فسأله عما فعل، فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً، فغضب سعد وقام لهما مغيضاً، ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للإسلام، ورجع لرجال بني عبد الأشهل، وهم بطن من الأوس، فقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا. قال: كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تسلموا، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الإسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى، قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج، وبينهم كثير من مشركيهم، ولما قابل فدهم رسول الله، واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة، فأمرهم أن لا يُنبَّهوا في ذلك الوقت نائماً، ولا ينتظروا غائباً، لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر، فيسعدوا في نقض ما أبرم، شأنهم مع رسول الله في أول أمره. ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عنّ معهم من المشركين، وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان وهما: نُسَيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة، ووافقهم رسول الله هناك وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه، ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون متوثقاً له، فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في مَنعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء، وتحملوا من ذلك أعظم الشدة، ثم قال لهم: إن كنتم ترون

بكر الهجرة فقال له عليه الصلاة والسلام: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمّ استعداداً لذلك.

دار الندوة

أما قريش فكانوا كأنهم أصيبوا بمسّ الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذود عنه حتى الموت، فاجتمع رؤسائهم وقادتهم في دار الندوة وهي دار قصيين كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه، فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا كي نستريح منه، فرُفض هذا الرأي لأنهم قالوا: إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يروونه من حلاوة منطقه وعضوبة لفظه. وقال آخر: نُوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت، فرُفض هذا الرأي كسابقه، لأنهم قالوا: إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره، ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه حيث يُفضّلونه على الآباء والأبناء، فإذا سمعوا ذلك جاؤوا لتخليصه وربما جرّ هذا من الحرب علينا ما نحن في غنى عنه. وقال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بثأره، نأخذ من كل قبيلة شاباً جلدًا يجتمعون أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد، فيفترق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرضون بالدية، فأقرّوا هذا الرأي. هذا مكرهم، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ { (الأنفال: 30) فأعلم نبيه بما دبره الأعداء في سرهم، وأمره باللاحق بدار هجرته، بدار فيها ينشر الإسلام، ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزة والمنعة. وهذا من الحكمة بمكان عظيم فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون: إن قريشاً أرادوا ملّك العرب، فعمدوا إلى شخص منهم، وأوعزوا إليه أن يدّعي هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم، ولكنهم كانوا له أعداء ألداء، آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم.

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فتوجه من ساعته إلى صديقه أبي بكر، وأعلمه أن الله قد أذن له في الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة، فقال: نعم، ثم عرض عليه إحدى راحتيه اللتين كانتا معدّتين لذلك، فجهزهما أحثّ الجهاز، وصنعت لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر نطاقها، وربطت به على فم الجراب، واستأجرا عبد اللهبين أريقط من بني الدليلين بكر، وكان هادياً ماهراً، وهو على دين كفار قريش فأمنّاه ودفعنا إليه راحتيهما، وواعداه

غار ثور بعد ثلاث ليالٍ. ثم فارق الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقرّوا عليه، فاجتمعوا حول باب الدار، ورسول الله داخله، فلما جاء ميعاد الخروج، أمر ابن عمه عليّاً بالمبيت مكانه كيلا يقع الشك في وجوده أثناء الليل، فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده، ثم سجّى عليّاً ببرده، وخرج على القوم وهو يقرأ: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} (9)

أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم إنما باتوا يحرسون عليين أبي طالب لا محمد بن عبد الله، هاجت عواطفهم، فأرسلوا الطلب من كل جهة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد أو يدل عليه، وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذي فيه طُلبتُهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما، حتى أبكى ذلك أبا بكر، فقال له عليه الصلاة والسلام: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا { (التوبة: 40) فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحنْ لأحد منهم النفاثة إلى ذلك الغار بل صار أعدى الأعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار. فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب. وكان يبيتُ عندهم عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقفٌ ولقنٌ فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبانت بها، فلا يسمع أمراً يكتادون به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامرين فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرهاها حين تذهب ساعة من العشاء، ويغدو بها عليهما، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر. ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحتين صبح ثلاث، وسارا متبعين طريق الساحل.

وفي الطريق لحقهم طالبا، سراقين مالك المدلجي، وكان قد رأى رُسُلَ مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما مئة ناقة لمن قتله أو أسره. فبينما هو في مجلس من مجالس قومهم مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال: يا سراقا إني رأيت أنفاً أسوداً بالساحل أراها محمداً وأصحابه، فعرف سراقا أنهم هم، ولكنه أراد أن يثني عزم مُخبره عن طلبهم، فقال: إنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالّةً لهم، ثم لبث في المجلس ساعة، وقام وركب فرسه، ثم سار، حتى دنا من الرسول ومن معه، فعثرت به فرسه فخرّ عنها، ثم ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت، وأبو بكر يُكثر الالتفات فساخت قائمتا فرس سراقا في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخرّ عنها، ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تخرج يديها حتى سَطَعَ لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فعلم سراقا أن عمله ضائع سُدّي، ودخله رعب عظيم، فناداها بالأمان فوقف عليه الصلاة والسلام ومن معه حتى جاءهم، ويقول سراقا: وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول

الله، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرهما بما يريد بهما الناس، وعرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً بل قالوا له: أخف عنا، فسأله سرقة أن يكتب له كتاباً أمن، فأمر أبا بكر فكتب. وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها عنايته برسوله.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدمه عليهم يخرجون إلى الحرّة حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد أن طال انتظارهم، فلما أورا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى، فقال اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدّكم — أي حظكم — الذي تنتظرون، فتأروا إلى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرّة.

النزول بقاء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقاء. والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق 20 سبتمبر سنة 622، وهذا أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة، وهو مضيق عليه من مشركي قريش، ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه، أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس.

هجرة الأنبياء

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سنة إخوانه من الأنبياء من قبله، فما من نبي منهم إلا نبت به بلاد نشأته، فهاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء، و خليل الله، إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائهم، فصبوا ليكونوا مثلاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله. فسلم مصر وتاريخها تنبئك عن إسرائيل (يعقوب) وبنيه أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بنيها ترحيباً بهم، وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته. ولما مضت سنون، نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم، فاضطهدوا بني إسرائيل وآذوهم، خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه في عبادته، وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه، فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه: طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات ثم قال بعد: افرحوا وتهلّلوا لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم طردوا الأنبياء الذين

قبلكم. وسل القرى التي حلت بها نقمة الله بكفر أهلها كديار لوط وعاد وشمود تتيئك عن مهاجرة الأنبياء
منها قبل حلول النقمة، فلا غرابة أن هاجر عليه الصلاة والسلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراه الله
{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (62)

أعمال مكة

هذا، ولنبيّن لك مجمل ما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة من أصول الدين وذلك أمران:

الأول: الاعتقاد بوحداية الله وأن لا يُشرك معه في العبادة غيره، سواء كان ذلك الغير صنماً كما يفعل
مُشركو مكة، أو أباً أو زوجةً أو بنتاً كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى، ولولا الاعتقاد بوحداية
الله ما كَلَّف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها
وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس.

الثاني: الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوماً ثانياً للإنسان يُجازى فيه على ما صنعه في الدنيا إن خيراً
فخيراً وإن شراً فشر، وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآي المكيّة، فقلّما نرى سورة من سور مكة إلا
مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما، وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل، وبراهين لا تحتاج لفلسفة
الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته ممّا يضيع الوقت سدّى. ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
بمكة من القرآن معظمه، وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه، وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة،
الأنفال، التوبة، الحج، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة،
الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر، هذه كلها مدنية وباقى القرآن مكّي.
ولما نزل عليه الصلاة والسلام بقباء، نزل على شيخ بني عمرو كُثُوم بن الهمد، وكان يجلس للناس
ويتحدث لهم في بيت سعد بن خَيْثمة لأنّه كان عزباً. ونزل أبو بكر بالسُّنْح (محلة بالمدينة) على خارجة بن
زيد من بني حارث من الخزرج.

مسجد قُباء

وأقام رسول الله بقباء ليالي أسس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أول
يوم، وصلى فيه عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين، وهم آمنون مطمئنون، وكانت
المساجد على عهد رسول الله في غاية من البساطة ليس فيها شيء مما اعتاده بُناة المساجد في القرون
الأخيرة، لأن الرسول وأصحابه لم يكن جُلُّ همّهم إلا منصرفاً لتزيين القلوب، وتنظيفها من حظ الشيطان،

فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يُتقى بها حرّ الشمس.

الوصول إلى المدينة

ثم تحوّل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدي سيفوهم، وهنا حدّث ولا حرّج عن سرور أهل المدينة، فكان يومٌ تحوله إليهم يوماً سعيداً لم يُروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:
طلع البدرُ علينا من ثَيّاتِ الوداعِ
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعياً
المبعوثُ فينا جئتُ بالأمرِ المطاعِ
وكان الناس يسيرون وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين ماشٍ وراكبٍ ينتازعون زمام ناقتِهِ، كل يريد أن يكون نزيله.

أول جمعة

وأدركته عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة في بني سالمين عوف، فنزل وصلّاها وهذه أول جمعة له عليه الصلاة والسلام، وأول خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلّموا والله ليصنعنّ أحدكم، ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنّ له ربه — ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه —: ألم يأتك رسولي فبلّغك، وأتيتك مالاً، وأفضلتُ عليك؟ فما قدّمتَ لنفسك؟ فلينظرنّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرنّ قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقّي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة؛ فإنّ بها تجزى الحسنَةُ عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا وكلما مروا على دار من دور الأنصار يتصرّحُ إليه أهلها بأن ينزل عندهم، ويأخذون بزمام الناقة، فيقول: «دعوها فإنها مأمورة»، ولم تزل سائرة حتى أتت بفناء بني عديين النجار (وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده) فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الأنصاري، واسمه خالد بن زيد، وذلك محلّ مسجده الشريف، فقال عليه الصلاة والسلام: «ههنا المنزل إن شاء الله» ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خيرُ المنزلين! (المؤمنون: 29) فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعها في منزله، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقتِهِ فكانت عنده، وخرجت ولأند بني النجار يقلن:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبِذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارٍ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَتَحِبُّونَنِي؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يَحْبُكُنَّ» وَاخْتَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ النَّزُولَ فِي الدَّوْرِ الْأَسْفَلَ مِنْ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ لِيَكُونَ أُرِيحَ لَزَائِرِيهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَرْضَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ كِرَامَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيبَهُ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي يُحْدِثُهُ وَطَاءَ الْأَقْدَامِ أَوْ الْمَاءِ الَّذِي يَهْرَاقُ، فَقَدْ اتَّفَقَ أَنْ كُسِرَتْ مِنْ زَوْجَتِهِ جِرَّةٌ مَاءً بِاللَّيْلِ، فَقَامَ هُوَ وَهِيَ بِقَطِيفَتَيْهِمَا الَّتِي لَيْسَ لِهَمَا غَيْرُهَا، يَمْسَحَانِ الْمَاءَ خَوْفًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يَسْتَعِظُهُ حَتَّى كَانَ فِي الْعُلُوِّ، وَكَانَتْ تَأْتِيهِ الْجَفَانُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ سَرَاةِ الْأَنْصَارِ كَسَعْدِينَ عِبَادَةً وَأَسْعَدِينَ زَرَارَةً وَأُمُّ زَيْدِينَ ثَابِتَةً، فَمَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَعَلَى بَابِهِ الثَّلَاثُ أَوْ الْأَرْبَعُ مِنَ جَفَانِ الثَّرِيدِ.

نزول المهاجرين

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الأنصار، فحكّموا القرعة بينهم، فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة.

أخوة الإسلام

ومن يتأمل إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر، بل بفضل من الله ورحمته، يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدد.

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، قال تعالى في سورة الحشر: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر: 9). وهذا أعلى درجات الأخوة، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُمكنَ بينهم الإخاء، آخى بين المهاجرين والأنصار، فكان كل أنصاري ونزله أخوين في الله. ومن العيب أن نكلف القلم أن يوضّح للقارئ أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية، بل نكل ذلك للإحساس الإسلامي فإنه أفصح منطقاً من القلم. وعلى الإجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة، وعسى الله أن يوفّق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون، وكان هذا الإخاء على المواساة والحق، وأن يتوارثوا بعد الموت دون نوي الأرحام، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل اثنين: «تأخيا في الله أخوين أخوين» ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} (الأحزاب: 6).

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله، وأرسل معهما عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق، فقدمتا بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه عليه الصلاة والسلام، وسودة زوجته، وأم أيمن زوج زيد وابنتها أسامة، وأما زينب فمنعها زوجها أبو العاصين الربيع، وخرج من الجميع عبد الله بن أبي بكر بأمر رومان، زوج أبيه، وعائشة أخته، وأسماء زوج الزبير بن العوام، وكانت حاملاً بابنها عبد الله، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة.

حُمَى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة، فأصاب كثيراً منهم الحمى، وكان رسول الله يُعوّدهم، فلما شكوا إليه الأمر قال: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة وأشد، وبارك لنا في مَدَّها وفي صاعها، وانقل وباءها إلى الجحفة». فاستجاب الله جَلَّ وعلا دعوته، وعاش المهاجرون في المدينة بسلام.

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة، وحبسوهم وعذبوهم، منهم: الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته، وهذا أصل القنوت، وقد حصل في أوقات مختلفة ومحال في الصلاة مختلفة، فكان في وتر العشاء، وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله، فروى كل صحابي ما رآه، وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت.

السنة الأولى

بناء المسجد

ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده في مَبْرَك ناقته أمام محلة بني مالك بن النجار، وكان محله مربداً للتمر يملكه غلامان يتيمان في حجر أسعدين زرارة، فدعا الغلامين، وساوهمما بالمربد ليتخذ مسجداً، فقالا: بل نهبئ لك يا رسول الله، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما، وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل، فأمر بالقبور فنُبِشت، وبالحفر فسُويت، وبالنخل فُقُطع، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا في البناء به، وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة، وسقفوه بالجريد، وجعلت عمدته من جنوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً، وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين في العمل، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم:

اللهم لا خير إلا خير الآخره فارحم الأنصار والمهاجره وجعلت قبلة المسجد في شماله إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثر فيه، فأمر عليه الصلاة والسلام بحصبه، ولم يزين المسجد بفرش حتى ولا بالحصر، وبني بجانبه حجرتان، إحداهما لسودة بنت زمعة، والأخرى لعائشة، ولم يكن عليه الصلاة والسلام متزوجاً غيرهما إذ ذاك، وكانت الحجرتان متجاورتين وملصقتين

للمسجد على شكل بنائه، وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج.

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكّرين عظمة العليّ الأعلى، فيتبعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ولذلك قال في مُحكم كتابه في سورة العنكبوت: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ {العنكبوت: 45}. وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم، ويقوّوا روابط الألفة والاتحاد بينهم، ومتى حان وقت الصلاة فلا بدّ من عمل ينبه الغافل، ويذكّر الساهي حتى يكون الاجتماع عامّاً، فانتصر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً، وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله، لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول أيضاً، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقبّل هذا الرأي، وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهّد مرتين، ثم قل: حيّ على الصلاة مرتين، ثم قل: حيّ على الفلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر رؤياه، فقال: «إنها لرؤيا حق»، ثم قال له: «لَقَنَّ ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة، والآخر عبد الله ابن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح: «الصلاة خير من النوم» مرتين، وأقرّه الرسول على ذلك، وكان عليه

الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذنين: أولهما يوقظ به الغافلون حتى يَنْتَبِهوا للسحور، والثاني للصلاة. وأما الأذان للجمعة، فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء. رواه البخاري. ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار، ثم نقل الأذان الذي كان على المنار حين صعود الإمام على المنبر في العهد الأول بين يديه.

فعلم بذلك أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب بدعة أحدثها هشام بن عبد الملك، ولا معنى لهذا الأذان، لأنه هو نداء إلى الصلاة، ومن هو في المسجد لا معنى لندائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء في المسجد. ذكر ذلك الشيخ محمد ابن الحاج في «المدخل».

قال الحافظ في فتح الباري: «وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى». ١ هـ.

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فإذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع.

أما الإقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد، فقد اختلفت الروايات في نصها فرواها محمد بن إدريس الشافعي مفردة إلا لفظ «قد قامت الصلاة» فمتمنى، ورواها مالك بن أنس مفردة كلها، ورواها أبو حنيفة النعمان متمنى كلها.

يهود المدينة

هذا، وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها وهم: بنو قينقاع، وقريظة، والنضير، فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤسائهم أن تكون النبوة في ولد إسماعيل، فكفروا بما أنزل الله بغياً، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين، مبيناً ما أفسده التأويل منها، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام، وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان أكثر منهم، فإنه ميال بطبعه للترقي، والرسول عليه الصلاة والسلام وجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدرج، لأنه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا، وأمرهم بالصلاة والزكاة، وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم، المختلفة أهوائهم، الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر شيئاً فشيئاً حتى رُوضت عقولهم، وهُدِّبَت نفوسهم، وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها، ليكون التأثير في النفوس أشد، ولكن اليهود أرادوا غلَّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون، وقد حجَّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البُعد عن الحق، فقال في سورة البقرة: قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ { (البقرة: 94) ثم حتمَّ جلَّ ذكره

عدم إجابته بقوله: {وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} (البقرة: 95). فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته، وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان. وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع وهو عبد الله بن سلام، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن، وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم، عدوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه، فـ{بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} (البقرة: 90)، ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره: {وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة: 32).

المنافقون

وكان يُساعدُهُم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم، فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً، والأساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك الله ما بطن، ولكنه عليه الصلاة والسلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما. فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة، ويولي عليها بعض الأنصار، ولكن لم يُعهد أنه ولى رجلاً ممن عهد عليه النفاق، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم ما يكون منهم لو وُلوا عملاً، فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين، وهذا درس مهم لرؤساء الإسلام، يعلمهم ألا يتقوا في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد.

معاهدة اليهود

هذا، وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين في المدينة فنتان: اليهود، والمنافقون، ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم، وعقد مع أولئك عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى، فلا يُحاربهم ولا يؤذيهم، ولا يعينون عليه أحداً، وإن دهمه بالمدينة عدو ينصرونه، وأقرهم على دينهم.

مشروعية القتال

قد عُلم مما تقدم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين، بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار، وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآي ما يقويه على الصبر أمام ما كان يلاقه من أذى قريش، ومن ذلك قوله في سورة الأحقاف: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} (الأحقاف: 35). وكان كثيراً ما يقص الله عليه أبناء إخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده، ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجؤوه إلى الخروج من داره بعد أن اتتمروا على قتله، فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق، فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} (39) 2 3 4 5 6 7 8 9 : ؛ { (الحج: 39، 40). ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)

وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب فلما تملاً على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب، واتحدوا عليهم مع الأعداء، أمر الله بقتال المشركين كافة، بقوله في سورة التوبة: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} (التوبة: 36) وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله». ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهد حيث أنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال: {وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} (الأنفال: 58) وقاتلهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ليأمن المسلمون جانبهم، وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادئ الآتية:

- 1 — اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدؤوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين.
- 2 — متى رُئي من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل.
- 3 — متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالإسلام.
- 4 — كل من بدأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن بالإسلام أو يعطي الجزية عن

يد وهو صاغر.

5 — كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه، والإسلام يقطع ما قبله.

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيراً من الآي تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء وتبعيدياً عن الفرار من الزحف، فقال في الموضوع الأول في سورة النساء: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء: 74). وقال في الموضوع الثاني في سورة الأنفال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِينُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاِدْبَارَ} (15) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (16)

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجاريتها إلى الشام لتتبع وتبتاع، ويُسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشرف القوم وسرّاتهم، ولا بد لوصلهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُصادر تجارتهم ذاهبةً وآيةً، ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة، حتى تضعف قوتهم المالية، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بدّ أن يكون، لأن قريشاً لم تكن لتسكت عمّن سفّه أحلامهم وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين.

سرية

ففي شهر رمضان أرسل عمّه حمزقبن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقد لهم لواء أبيض حملة أبو مرثد حليف حمزة، ليعترض عيراً لقريش آية من الشام، فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص فصادف العير هناك، فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجذبين عمرو الجهني فأطاعوه وانصرفوا، وشكر عليه الصلاة والسلام مجدياً على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم.

وفي شوال أرسل عُبيدقبن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين ركباً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حملة مسطحين أثائة ليعترض عيراً لقريش، فيها مئتا رجل، فوافوا العير ببطن رابع فكان بينهما الرمي بالنبل، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا، ولم يتبعهم المسلمون، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقدادين الأسود وعتبةبن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين.

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، ولما دفن أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُرَشَّ قبره بالماء، ووضع على قبره حجراً، وقال: «أَتَعَلَّمُ بِهِ قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مِنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي»، وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور، وتصويرها بصور تُرَى في عين الناظر كالأصنام، ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرة، تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم، ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بأمور الآخرة.

ومات من الأنصار أسعد بن زُرارة أحد النقباء الاثني عشر، كان رضي الله عنه نقيب بني النجار، ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن «ابن أخت القوم منهم» ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء، وهو الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية. ومات من مشركي مكة في هذه السنة الوليد بن المغيرة، ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل: ما جزعك يا عم؟ فقال: والله ما بي من جزع من الموت، ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة، فقال أبو سفيان: لا تخف إني ضامن ألا يظهر. وفيها أيضاً مات العاصب بن وائل السهمي. وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين.

السنة الثانية

غزوة ودان

ولاثنتي عشرة ليلة خلت من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عباد، ليعترض عيراً لقريش، فسار حتى بلغ ودان، وكان يحمل لواءه عمه حمزة، ولم يلق هناك حرباً لأن العير كانت قد سبقته، وفي هذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دُعوا، ثم رجع إلى المدينة بعد مضي خمس عشرة ليلة.

غزوة بواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آبية من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فسار إليها في مائتين من المهاجرين، وذلك في ربيع الأول، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، فسار حتى بلغ بواط، فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيداً، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة.

وأعقب رجوعه عليه الصلاة والسلام خروج قريش بأعظم عير لها فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها متقالً فصاعداً إلا بعث به في تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً، فخرج لها الرسول في جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وحمل لواءه عمه حمزة، ولم يزل سائراً حتى بلغ العُشيرة فوجد العير قد مضت، وحالف عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة بني مُدَلج وحلفاءهم، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع.

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه الصلاة والسلام بقليل جاء كُرُزُين جابر الفهري، وأغار على سرح المدينة وهرب، فخرج الرسول في طلبه، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الأنصاري، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، فسار حتى بلغ سَفَوان وفاته كُرُزٌ فلم يلق حرباً، وتُسمى هذه الغزوة بدرًا الأولى.

سرية

وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال، يرأسها عبد الله بن جحش، وأعطاه كتاباً مختوماً لا يَفْضُهُ إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه، فسار عبدُ الله يومين، ثم فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نَخْلَةٌ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» وإنما لم يخبرهم عليه الصلاة والسلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر، فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فترصد لهم قريش. ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة، ثم سار عبد الله رضي الله عنه، وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غَزْوَان لأنهما أضلا بعيرهما الذي كانا يعتقانه، وسار الباقيون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل، والحكمين كيسان، فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم، فحملوا عليهم في آخر يوم من رجب، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان والحكم، وهرب نوفل، واستاقوا العير وهي أولُ غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا، ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم، فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم، وعابتهم قريش واليهود بذلك، عَنَّفَهُم

المسلمون، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحُرْمِ» فأنزل الله في سورة البقرة: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ {البقرة: 217} فَسَرَّيْنِي عَنْهُمْ وَقَدْ طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ فِدَاءَ أُسَيْرِيهِمَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «حَتَّى يَرْجِعَ سَعْدٌ وَعَتَبَةُ»، فَلَمَّا رَجَعَا قَبِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْفِدْيَةَ فِي الْأَسِيرِينَ، فَأَمَّا الْحَكَمِينَ كَيْسَانَ

فأسلم وحسن إسلامه وبقي مع المسلمين، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً.

تحويل القبلة

مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس في صلاته، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقبّل وجهه في السماء داعياً الله بذلك. فبينما هو في صلاته إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول، وتحول من وراءه. وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم. وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل. وما دروا أن الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

صوم رمضان

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية، وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. والصيام من دعائم هذا الدين، والفرائض التي بها يتم النظام، فإن الإنسان مجبول على حب نفسه، والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص، تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلا بد من وازع يزرعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش، إذ بهما تلين نفسه ويتهدب خلقه، فيسهل عليه بذل الصدقات.

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فتري الإنسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة.

زكاة المال

وفي هذا العام فُرضت زكاة الأموال، وهذه هي النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغت الدينارين عشرين أو الدراهم مائتين، وحال عليها الحول، وجب عليك أن تؤدي ربع عشرها، أي اثنين ونصفاً في كل مائة، وما زاد فبحسابه، وإذا بلغت الشياه أربعين، والبقرة ثلاثين، والإبل خمساً، وحال عليها الحول وجب عليك كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع، ومثلها عروض التجارة، ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الإمام، ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (60)

غزوة بدر الكبرى

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج لها عليه السلام وهي متوجهة إلى الشام، فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها، فلما سمع برجوعها ندب إليها أصحابه، وقال: «هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها»، فأجاب قوم، وتقل آخرون، لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يُرد حرباً، فإنه لم يحتفل بها بل قال: «من كان ظهره حاضراً فليركب معنا». ولم ينتظر من كان ظهره غائباً. فخرج لثلاث ليالٍ خلون من رمضان بعد أن ولي على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم، وكان معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: مثنان ونيف وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فرسان، وسبعون بغيراً يعتقبونها، والحامل للواء مصعب بن عمير العبدي. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم استأجر ركباً ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر، فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم، وخافوا على تجارتهم، فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرفهم إلا أبو لهيب عبد المطلب، فإنه أرسل بدله العاصب هشام بن المغيرة. وأراد أمية بن خلف أن يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل، حيث قال — كما رواه البخاري — سمعت من رسول الله يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري. ففرع لذلك وحلف ألا يخرج، فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فإن منيته ساقته إلى حنقه رغم أنه. وكذلك عزم جماعة من الأشراف على القعود فعيب عليهم ذلك، وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج، فخرجوا على الصعب والذلول، أمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ (الأنفال: 48). وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم، فقال في سورة الحشر:

{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ () ، . } (الأَنْفَالُ: 48). وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للبعير، فعسكر بببوت السُّقْيَا خارج المدينة، واستعرض الجيش فردَّ مَنْ ليس له قدرة على الحرب، ثم أرسل اثنتين يتجسسان الأخبار عن البعير. ولما بلغ الرُّوحَاءُ جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عبيرهم، وجاءه مخبراه بأن البعير ستصل بداراً غداً أو بعد غد، فجمع عليه الصلاة والسلام كبراء الجيش وقال لهم: «أيها الناس إنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم: البعير أو النفير» فتبين له عليه الصلاة والسلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهي البعير ليستعينوا بما فيها من الأموال، فقد قالوا: هلاً ذكرت لنا القتال فنستعد وجاء مصداق ذلك قوله في سورة الأنفال: وَإِذْ يَعْذُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} (الأَنْفَالُ: 7). ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امضِ لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة: 24) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له بخير، ثم قال عليه السلام: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وهو يريد الأنصار لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام بين أظهرهم. فإن فيها: يا رسول الله إِنَّا

بُرَاءٌ مِنْ ذِمَّتِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْهَا فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. فقال سعد بن معاذ، سيد الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «أجل» فقال سعد: قد آمننا بك وصدقناك، وأعطيناك على ذلك عهدنا، فامضِ لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ الْوُقُوعِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مَنَّا مَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُكَ، فسر على بركة الله. فأشرق وجهه عليه السلام، وسرَّ بذلك، وقال كما في رواية البخاري: «أبشروا والله كأنني أنظر إلى مصارع القوم» فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بدَّ حاصلة، وحقيقة حصلت، فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة، وسار متبعاً ساحل البحر فنجا، وأرسل إلى قريش يُعَلِّمُهُمْ بِذَلِكَ، ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نحضر بداراً فنقيم فيه ثلاثاً: نحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً. فقال الأحنس بن شريق الثقفي لبني زهرة — وكان حليفاً لهم —: ارجعوا يا قوم فقد نجى الله أموالكم فرجعوا، ولم يشهد بداراً زهري ولا عدوي، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر فنزلوا عدوته القصوى عن المدينة في أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين، فإنه لما قارب بدمراً أرسل عليه السلام عليّين أبي طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار، فصادفا سقاةً لقريش فيهم غلام لبني الحجاج و غلام لبني العاص السهميين، فأتيا بهما، والرسول عليه السلام قائم يصلي، ثم سألاه ما عن أنفسهما، فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان. فقال الغلامان: نحن لأبي سفيان فتركاهما. ولما أتت الرسول عليه السلام صلاته، قال: «إذا صدقكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا والله إنهما لقريش». ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش؟» قالوا: هم وراء هذا الكئيب، فقال لهما: «كم هم؟» فقالا: لا نري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟». قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. قال: «القوم ما بين التسعمائة والألف»، ثم سألهما عن في النفير من أشرف قريش فذكرا له عدداً عظيماً، فقال عليه السلام لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»، ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب وبعضهم محدث، فحدثهم الشيطان بوسوسته، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثبتت عزائمهم، فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي، فشربوا واتخذوا الحياض على عذوة الوادي، واغتسلوا وتوضؤوا وملؤوا الأسقية، ولبدت الأرض، حتى ثبتت عليها الأقدام، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين فإنه وحل الأرض حتى لم يعودوا يقدرين على الارتحال. ومصدق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ {الأنفال: 11} وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدد كيلا يفشل المسلمون، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتُمْ فِي آعِينِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَالُكُمْ فِي آعِينِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

وَسُلِّمَتْهُ حَتَّىٰ نُصْرَعَ حَوْلَهُمْ نَذْهَلَ عَنَّا أَبْنَانًا وَالْحَالِلِ وَبَعْدَ انْقِضَاءِ هَذِهِ الْمِبَارِزَةِ، وَقَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ الصَّفُوفِ يَعْجَلُهَا بِقَضِيْبٍ فِي يَدِهِ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةٍ حَلِيفِ بَنِي النَّجَارِ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الصَّفِّ، فَضْرِبَهُ بِالْقَضِيْبِ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ: «اسْتَقِمْ يَا سَوَادُ»، فَقَالَ أَوْجَعْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ بُعِثْتُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَأَقْدِنِي مِنْ نَفْسِكَ. فَكَشَفَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَن بَطْنِهِ، وَقَالَ: «اسْتَقْدِ يَا سَوَادُ»، فَاعْتَقَهُ

سواد وقيل بطنه. فقال عليه الصلاة والسلام: «ما حملك على ذلك؟» فقال يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمسّ جلدي جلديك، فدعا له بخير، ثم ابتداءً عليه السلام يوصي الجيش فقال: «لا تحملوا حتى أمركم، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلّوا السيوف حتى يعشّوكم» ثم حضّم على الصبر والثبات، ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك الوقت كما جاء في صحيح البخاري: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد» فقال أبو بكر: حسبتك فإن الله سينجز لك وعده. فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ (45)

واشتد القتال، وحمي الوطيس، وأيد الله المسلمين بالملائكة بُشِّرَى لهم ولتطمئن به قلوبهم. فلم تكن إلا ساعة حتى هُزم الجمع، وولوا الدُّبْرَ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتل من المشركين نحو السبعين، منهم من قریش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، قُتِلوا مبارزة أول القتال، وأبو البختر بين هشام، والجراح والد أبي عبيدة قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر، وقُتِلَ أمية بن خلف وابنه علي، اشترك في قتلها جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر، وقد سعيًا في ذلك لما كان يفعله بهما أمية في مكة. ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان، وأبو جهلين هشام، أخنوخ فتان صغيران من الأنصار، لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود، وقُتِلَ نوفل بن خويلد قتله علبين أبي طالب، وقُتِلَ عبيدة والعاصي ولدا أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، وقُتِلَ كثيرون غيرهم. أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً، قُتِلَ منهم عليه السلام وهو راجع عقبته بن أبي معيط، والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين. وكانت هذه الواقعة في (17) رمضان، وهو اليوم الذي ابتداء فيه نزول القرآن وبين التاريخين (14) سنة قمرية كاملة.

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بها قبل حصول الواقعة إلى قليب بدر، لأنه عليه السلام كان من سننه في مغازيه إذا مرّ بجيفة إنسان أمر بها دفنت، لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً. ولما ألقى عتبة والد أبي حذيفة أحد السابقين إلى الإسلام تغير وجه ابنه ففطن الرسول عليه السلام لذلك، فقال: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: لا والله ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكننت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أحزنتني ذلك، فدعا له الرسول عليه السلام بخير، ثم أمر عليه السلام براحلته فشُدَّ عليها حتى قام على شفة القليب الذي رمي فيه المشركون، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلانين فلان ويا فلانين فلان أيسرركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»

فقال عمر: يا رسول الله ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال: «والذي نفسُ محمد بيده ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم». وتقول عائشة رضي الله عنها إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنتُ أقولُ لهم حق»، ثم قرأت: إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى { (النمل: 80) } وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ { (فاطر: 22) }، يقول: «يعلمون ذلك حينما تبوؤوا مقاعدهم من النار». رواه البخاري. ثم أرسل عليه السلام المبشرين، فأرسل عبد الله بن رواحة لأهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقه رسول الله، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، عادة الأعداء في إذاعة الضراء، يقصدون بذلك فتنة المسلمين، فجاء أولئك المبشرون بما سرَّ أهل المدينة، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان. ثم قفل رسول الله راجعاً، وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين في قسمة

الغنائم، فالشبان يقولون: باشرنا القتال، فهي لنا خالصة، والشيوخ يقولون: كنا رداءً لكم فنشارككم. ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو إلى الضعف، ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ قُلِ الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا ()** {1: (الأنفال: 1)} فسطع على أفئدتهم نور القرآن، فتألفت بعد أن كادت تفترق، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء — كما حكم القرآن — فقسمها عليه الصلاة والسلام على السواء الرجال مع الرجل، والفارس مع الفارس، وأدخل في الأسهم بعض من لم يحضر لأمر كُلف به وهم: أبو لبابة الأنصاري لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة، والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه، والحارث بن الصمة وخواتين جبير لأنهما كُسرا بالروحاء فلم يتمكن من السير، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار، فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب، وعثمان بن عفان لأن الرسول عليه السلام خلفه على ابنته رقية يمرضها، وعاصم بن عدي لأنه خلفه على أهل قباء والعالية، وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيد بن الحارث بن عبد المطلبين هاشم الذي جرح في المبارزة الأولى، فإنه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصَّراء. ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا من ثنَّياتِ الوداعِ
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعياً
المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكّني من فلان — لقریب له — فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عقيل. وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن تكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. ووافقته على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة، وقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليؤلّل قلوب أقوام حتى تكون ألبين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (إبراهيم: 36) وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال: رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (نوح: 26)» ورأى عليه الصلاة والسلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي إغزاز الدين، وخذلان المشركين، ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء» وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه رسول الله في أمر الأسرى، فناحت على القتلى شهراً، ثم أشير عليهم من كبارهم ألا يفعلوا كيلاً يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشتموا بهم، فسكتوا وصمّموا على ألا يبيكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم، وتواصوا فيما بينهم ألا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه.

الفداء

فلم يلتفت إلى ذلك المطّلبين أبي وداعة السهمي، وكان أبوه من الأسرى، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها، وكان أربعة آلاف إلى ألف درهم، ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يُعلّمهم، وكان ذلك فداءً.

ومن الأسرى عمرو بن أبي سفيان، ولما طلب من أبيه فداؤه أبي، وقال: والله لا يجمع محمد بين ابني ومالي، دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم. فبينما أبو سفيان بمكة إذ وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً، فدعا عليه فحبسه بابنه عمرو، فمضى قوم سعد إلى رسول الله وأخبروه فأعطاهم عمراً ففكّوا به سعداً.

ومن الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول، وكان عليه الصلاة والسلام قد أتت عليه خيراً في مصاهرته، فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة، طلبوا من أبي العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول، فامتنع وقال: والله لا أفارق صاحبتني، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش، ولما أسر أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها. فلما

رأى عليه الصلاة والسلام تلك القلادة رقاً لها رقّة شديدة، وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردّوا لها قلادتها فافعلوا» فرضي الأصحاب بذلك، فأطلقه عليه الصلاة والسلام بشرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة. فلما وصل إلى مكة أمرها باللاحاق بأبيها، وكان الرسول أرسل لها من يأتي بها فاحتملوها. هذا، ولما أسلم أبو العاصين الربيع قبيل الفتح ردّ عليه امرأته بالنكاح الأول.

ومن الأسرى: سُهَيْل بن عمرو، وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه، فقال عمر بن الخطاب: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزِعْ ثَنِيَّتِي سَهِيلَ، يَدْلَعُ لِسَانَهُ، فَلَا يَقُومُ عَلَيْكَ خَطِيبًا فِي مَوْطِنٍ أَبَدًا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا أُمْتَلُّ فِيمَتَّلَّ اللَّهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا، وَعَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا لَا تَذَمُّهُ» وقدم بفدائه مكرز بن حفص، ولما ارتضى معهم على مقدارٍ حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء. هذا، وقد حقّق الله خير الرسول في سهيل، فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الأعراب، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله: أيها الناس مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَالَ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} (30) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} (آل عمران: 144) ثم قال: والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرّك هذا ——— يريد أبا سفيان ——— من أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمته تامّة، وإن الله ناصر من نصره ومقوِّد دينه، وقد جمعكم الله على خيركم ——— يريد أبا بكر ——— وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه. فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم.

ومن الأسرى: الوليد بن الوليد افتكّه أخواه خالد وهشام، فلما افتديَ ورجع إلى مكة أسلم فقيل له: هلاّ أسلمت قبل الفداء؟ فقال خفت أن يعدّوا إسلامي خوفاً. ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففرّ إلى النبي في عمرة القضاء.

ومن الأسرى: السائب بن يزيد، وكان صاحب الراية في تلك الحرب، فدى نفسه. وهو الجد الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

ومنهم: وهيب بن عمير الجُمحيّ كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الإيذاء لرسول الله، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مُصاب بدر، فقال عمير: والله لولا دَيْنٌ عليّ ليس

عندي قضاؤه و عيال أخشى عليهم الفقر بعدي، كنت آتي محمداً فأقتله، فإن ابني أسير في أيديهم، فقال صفوان: دينك عليّ و عيالك مع عيالي، فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمّه، وانطلق حتى قَدِمَ المدينة، فبينما عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا بشر، ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام: هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، فقال: «أدخله عليّ». فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله. فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: «أطلقه يا عمر ادن يا عمير» فدنا، وقال: أنعموا صباحاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد أبدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهي: السلام»، ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنا فيه، فقال: «فما بال سيف؟» قال: قَبَّحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال عليه الصلاة والسلام: «اصدقني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك. قال عليه الصلاة والسلام: «كلا بل قعدت أنت و صفوان في الحجرِ وقتلتما كيت وكيت»، فأسلم عمير وقال: كنّا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا و صفوان فقال عليه الصلاة والسلام: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره»، فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه.

ومن الأسرى: أبو عزيزين عمير، أخو مصعبين عمير. مرّ به أخوه فقال للذي أسره: شدّ يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. فقال له: يا أخي هذه وصايتك بي؟ ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم. ومن الأسرى: العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً، ولما وقع في الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيلين أبي طالب، فقال: علام ندفَع وقد استكرهنا على الخروج؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد كنت في الظاهر علينا»، فأخذت منه فديه نفسه وابن أخيه، ثم قال للرسول: لقد تركتني فقير قريش ما بقيت، قال: «كيف وقد تركت لأُم الفضل أموالاً؟ وقلت لها: إن مت فقد تركتك غنية» فقال العباس: والله ما اطلع على ذلك أحد. وهذا العمل غايبة ما يفعل من العدل والمساواة فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُعَفِّ عمّه مع علمه بأنه إنما خرج مكرهاً، وقد أعفى غيره جماعة تحقّق له فقرهم فهكذا العدل، ولا غرابة، فذلك أدب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: 135).

ومن الأسرى: أبو عزّة الجمحي الشاعر، كان شديد الإيذاء لرسول الله بمكة فلما أسر قال: يا محمد إني فقير، وذو عيال، وذو حاجة قد عرفتُها فامُننْ، فمنّ عليه فضلاً منه.

العتاب في الفداء

ولما تمّ الفداء أنزل الله في شأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (68)

نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإتيان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله ألا يعاقب مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً لكان العذاب، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح. وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناءً على رأي كثير من الصحابة. وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70)

وهذه الغزوة هي التي أعز الله بها الإسلام وقوى أهله، ودمغ فيه الشرك وخرّب محله، مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم، فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدّة الكاملة، والخيل المسوّمة، والخيل الزائدة، ولذلك قال الله ممتناً على عباده بهذا النصر: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ { (آل عمران: 123) أي: قليل عددكم، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، فهي أعظم غزوات الإسلام، إذ بها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره، فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألداء للإسلام، ودخل الرعب في قلوب العرب الآخرين، فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش، ويهزمون الرجال، فلا جرم أن شكرنا العليّ الأعلى على هذه العناية، واتخذنا يوم النصر في بدر وهو السابع عشر من شهر رمضان عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين.

غزوة بني قينقاع

هذا، وإذا كان للشخص عدواناً فانتصر على أحدهما حرّك ذلك شجو الآخر، وهاج فؤاده، فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر، فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه، وأظهروا مكنون ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار، وهذا ما يدعو المسلمين للتحرّز منهم وعدم انتمائهم في المستقبل إذا شبّت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم، فأنزل الله في سورة الأنفال: {وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} (الأنفال: 58) فدعا عليه الصلاة والسلام رؤساءهم وحذّره عاقبة البغي ونكث العهد، فقالوا: يا محمد لا يغرّنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس، وكانوا أشجع يهود، فأنزل الله في سورة آل عمران: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (13) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ { (المائدة: 51 — 52).

وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم، سار إليهم عليه الصلاة والسلام في نصف شوال من هذه السنة، يحمل لواءه عمه حمزة، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري، فحاصرهم خمس عشرة ليلة.

جلاء بني قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين، وأدركهم الرعب، سألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال. فقبل ذلك عليه الصلاة والسلام، ووكّل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهم ثلاث ليالٍ، فذهبوا إلى أذرع، ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا، وخمس عليه الصلاة والسلام أموالهم، وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل، ولما سُئِلَ عن ذلك قال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا»، وشبك بين أصابعه.

غزوة السويق

كان أبو سفيان متهيباً، لأنه لم يشهد بديراً التي قتل فيها ابنه وذوو قرياه فحلف ألا يمسه رأسه الماء حتى يغزو محمداً، وليبرر بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قاربها، أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم، ويستعين بهم على حرب المسلمين، فأتى سيدهم حبيبن أخطب فلم يرضَ مقابلته، فأتى سلام بن مشكم فأذن له واجتمع به، ثم خرج من عنده، وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة، فحرقوا في بعض نخلها، ووجدوا أنصارياً فقتلوه، ولما علم بذلك رسول الله، خرج في أثرهم في مائتين من أصحابه، لخمس خلون من ذي الحجة، بعد أن ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر، ولكن لم يلحقهم، لأنهم هربوا وجعلوا يخفون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسراع، فألقوا ما معهم من جرب السويق، فأخذ المسلمون، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق.

صلاة العيد

وفي هذا العام سنَّ الله للعالم الإسلامي سنَّةً عظيمةً، بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء، ويقفوا عروة الدين الوثقى، وهي الاجتماع في يومي عيد الفطر وعيد الأضحى. وكان عليه الصلاة والسلام يجمع المسلمين في صعيد واحد، ويصلي بهم ركعتين تضرعاً إلى الله أن لا يفصم عروتهم، وأن ينصرهم على عدوهم، ثم يخطبهم حاضاً لهم على الائتلاف، ومذكراً لهم ما يجب عليهم لأنفسهم، ثم يصفح المسلمون بعضهم بعضاً، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين، حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين، فبعد الفطر زكاته، وبعد الأضحى تضحيته، نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا، ويوفّقنا لأعمال سلفنا.

زواج علي وفاطمة عليهما السلام

وفي هذه السنة تزوج عليين أبي طالب وعمره إحدى وعشرون سنة وفاطمة بنت رسول الله، وسنها خمس عشرة سنة، وكان منها عقب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنوه: الحسن والحسين وزينب. وفيها دخل عليه الصلاة والسلام بعائشة بنت أبي بكر وسنّها إذ ذاك تسع سنوات.

السنة الثالثة

يا لله يُفضى على الشقي بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر، فيتخذ الغدر رداءً، والخيانة شعاراً، فلا ينجح معه إلا إراحة العالم من شرّه. هذا كعبين الأشرف اليهودي عظيم بني النضير، أعمته عداوة المسلمين حتى خلع بُرُقُع الحياء، وصار يحرض قريشاً على حرب رسول الله، ويهجو بالشعر، ويجتهد في إثارة الشحناء بين المسلمين، فكلما جبر عليه الصلاة والسلام كسراً هاضه هذا الشقي بما ينفثه من سموم لسانه.

قتل كعبين الأشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر، ورأى الأسرى مقرّنين في الحبال خرج إلى قريش يبكي قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: «من لكعبين الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟» فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي: أتحبُّ أن أقتله؟ قال: «نعم»، قال: أنا لك به، واندن لي أقول شيئاً أتمكن به، فأذن له، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له: إن هذا الرجل — يريد رسول الله — قد سألنا صدقة وإنه قد عاننا، وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضاً والله لتمنّهُ، قال: إنا قد اتّبعناه، فلا نحبُّ أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين. قال: نعم ولكن ارهنوني. قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسبُّ أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأمة — يعني: السلاح — فرضي، فواعده ليلاً أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعبّادين بشر، والحارثين أوس، وأبو عبيس ابن جبر

_____ وكلهم أوسيون _____ فناداه محمد بن مسلمة، فأراد أن ينزل، فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة وإنيك امرؤٌ مُحارب؟ فقال: إنما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ورضيحي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب. ثم قال محمد لمن معه: إذا جاءني فإني آخذ بشعره فأشتمُّه، فإذا رأيتُموني استمكنت من رأسه فاضربوه، فنزل إليهم كعب متوشحاً سيفه، وهو ينفخُ منه ريح المسك. فقال محمد: ما رأيت كالسيوم ريحاً أطيب، أتأذن لي أن أشتمَّ رأسك؟ قال: نعم فشمِّه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه ففعلوا، وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم، ثم أتوا النبي فأخبروه، وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام، وكان عليه الصلاة

والسلام إذا رأى من رئيس غدرًا، ومقاصد سوء، ومحبة لإثارة الحرب، أرسل له من يُريحه من شرِّه. وقد فعل كذلك مع أبي عَفْكَ اليهودي وكان مثل كعب في الشر.

غزوة غَطَفَانَ

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دُعُثُور، يريدون الغارة على المدينة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يغلَّ أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء، فخرج إليهم من المدينة في أربعمئة وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وخلف على المدينة عثمان بن عفان. ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا إلى رؤوس الجبال، ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يُسمى ذا أمرٍ، فعسكروا به، وحدث أنه عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجفِّفه من مطر بللَّه وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون، فأبصره دُعُثُور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه، وقال: مَنْ يمنعك مني يا محمد؟ فقال: «الله»، فأدركت الرجل هيبَةً ورعبٌ أسقطا السيف من يده، فتناوله عليه الصلاة والسلام، وقال لدعُثُور: «مَنْ يمنعك مني؟» قال: لا أحد. فعفا عنه فأسلم الرجل، ودعا قومه للإسلام، وحول الله قلبه من عداوة رسول الله، وجمع الناس لحربه إلى محبته وجمع الناس له، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} (المائدة: 54) وهذا ما ينتجه حسن المعاملة، والبعد عن الفظاظلة وغلظ القلب، {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكَوْنَتْ فِتْنًا غَلِيظًا لِقَلْبٍ لَانْفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} (آل عمران: 159).

غزوة بُحْرَانَ

بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بني سليم يريدون الغارة على المدينة، فسار إليهم في ثلاثمئة من أصحابه لسيتَ خَلُون من جمادى الأولى، وخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ولما وصل بُحْرَانَ تفرقوا، ولم يلق كيداً فرجع.

سرية

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق في وجه تجارتهم، ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم، أرسلوا عيراً إلى الشام من طريق العراق، وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيانين حرب، وصفوانبن أمية، وحويطبين عبد العزى، فجاءت أخبارهم لرسول الله، فأرسل لهم زيدبن حارثة في مائة راكب يترقبونهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة، فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه القردّة بناحية نجد فأخذت العير وما فيها، وهرب الرجال، وقد خمّس الرسول عليه الصلاة والسلام هذه حينما وصلت له.

غزوة أُحد

ولما أصاب قريشاً ما أصابها ببدر، وأغلقت في وجوههم طرق التجارة، اجتمع من بقي من أشرفهم إلى أبي سفيان رئيس تلك العير التي جلبت عليهم المصائب، وكانت موقوفة بدار الندوة، ولم تكن سلّمت لأصحابها بعد، فقالوا: إن محمداً قد وتّرنا، وقتل خيارنا، وإنّا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها، استعداداً لحرب محمد وأصحابه، وقد رضي بذلك كلُّ من له فيها نصيب، وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار، فجمعوا لذلك الرجال، فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش — وهم حلفاؤهم من بني المصطلق وبني الهونين خزيمة، ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم عدد ممن هم على شاكلته، وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهمامة، وقال صفوانبن أمية لأبي عزة الشاعر — الذي لا ينسى القارىء أن الرسول منّ عليه ببدر وأطلقه من غير فداء —: إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك، فقال: إني عاهدت محمداً ألا أعين عليه، وأخاف إن وقعت في يده مرة ثانية ألا أنجو، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه، وذهب يستتفر الناس لحرب المسلمين، ودعا جُبَيْربن مُطْعِم غلاماً حبشياً له، اسمه وحشي، وكان رامياً قلماً يُخطيء، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة بعميّ طُعَيْمة فأنت حر. ثم خرج الجيش، ومعهم القيانُ والدوفوف والمعازف والخمور، واصطحب الأشرافُ منهم نساءهم كيلاً يهنّؤا، ولم يزلوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة.

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمه العباسبن عبد المطلب، الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب، محتجاً بما أصابه يوم بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب

المشركين، جمع عليه الصلاة والسلام أصحابه وأخبرهم الخبر، وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم» فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبي، أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدرأ منهم فأشاروا عليه بالخروج، وكان مع رأيهم حمز بن عبد المطلب، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم، لأنهم الأكثر عدداً والأقرب جلدًا، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال، وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم: «لكم النصر ما صبرتم» ثم دخل حجرته، ولبس عذته، فظاهر بين درعين، وتقلد السيف، وألقى الترس وراء ظهره. ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكروا الرسول على الخروج لأموهم، وقالوا: ردوا الأمر لرسول الله، فما أمر انتمرناء، فلما خرج عليه الصلاة والسلام، قالوا: يا رسول الله نتبع رأيك، فقال: «ما كان لنبي ليس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه» ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيدين الحضير، وخرج من المدينة بألف رجل. فلما وصلوا رأس الثنية، نظر عليه الصلاة والسلام إلى كنيبة كبيرة، فسأل عنها، فقيل: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود، فقال: «إننا لا نستعين بكافر على مشرك» وأمر بردهم لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى في الخيانة. ثم استعرض الجيش فرداً من استصغر، وكان فيمن رد: رافعين خديج، وسمرقبن جندب، ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رام، فبكى سمرّة، وقال لزوج أمه: أجاز رسول الله رافعاً وردني مع

أني أصرعه، فبلغ رسول الله الخبر، فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرّة، فأجازه. ثم بات عليه الصلاة والسلام محله ليلة السبت، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن عبد قيس. وفي السحر سار الجيش حتى إذا كان بالشوط — وهو بستان بين أحد والمدينة — رجع عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه وقال: عصاني وأطاع الولدان فعلام نقتل أنفسنا؟ فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر، وقال: يا قوم أذكركم الله ألا تدخلوا قومكم وبيوتكم، قالوا لو نعلم قتالاً لا نتبعناكم (آل عمران: 167) فقال لهم: أبعذكم الله، فسيغني الله عنكم نبيه. ولما فعل ذلك عبد الله بن أبي، همّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، فعصمهما الله. وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخلين، فقوم يقولون: نقاتلهم، وقوم يقولون: نتركهم، فأنزل الله في سورة النساء: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا (88)}

هذا، ولما قُتِلَ حَمَلَةُ اللّوَاءِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى الدَّنُو مِنْهُ وَلَوْ الْأَدْبَارَ وَنَسَاؤُهُمْ يَبْكِينَ وَيُولُولُنَ، وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ وَالْأَسْلَابَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الرَّمَاةَ الَّذِينَ يَحْمُونَ ظُهُورَ الْمُسْلِمِينَ فَوْقَ الْجَبَلِ، قَالُوا: مَا لَنَا فِي الْوُقُوفِ مِنْ حَاجَةٍ، وَنَسُوا أَمْرَ السَّيِّدِ الْحَكِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَهُمْ رَئِيسُهُمْ بِهِ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا وَانْطَلَقُوا يَنْتَهَبُونَ. أَمَّا رَئِيسُهُمْ فَتَبَّتْ وَتَبَّتْ مَعَهُ قَلِيلٌ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَأَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ——— أَحَدُ رُؤَسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ——— خُلُوءَ الْجَبَلِ مِنَ الرَّمَاةِ، انْطَلَقَ بِبَعْضِ الْجَيْشِ، فَقَتَلَ مَنْ تَبَّتْ مِنَ الرَّمَاةِ، وَأَتَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَهُمْ مُشْتَغَلُونَ بِدَنِيَاهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ الْبَلَاءَ دَهَشُوا وَتَرَكَوْا مَا بِأَيْدِيهِمْ، وَانْتَقَضَتْ صَفُوفُهُمْ، وَاخْتَلَطُوا مِنْ غَيْرِ شِعَارٍ، حَتَّى صَارَ يُضْرَبُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَرَفَعَتْ إِحْدَى نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ اللّوَاءَ فَاجْتَمَعُوا حَوْلَهُ، وَكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ ابْنُ قَمَيْتَةَ قَتَلَ مُصْعَبِ بْنَ عَمِيرٍ صَاحِبَ اللّوَاءِ، وَأَشَاعَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قَتَلَ، فَدَخَلَ الْفِشْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَامٌ نَقَاتِلُ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ؟ فَارْجِعُوا إِلَى قَوْمِكُمْ يَوْمَكُمْ. وَقَالَ جَمَاعَةٌ: إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ. وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ هَذَا الْفِشْلِ أَنَّ انْهَزَمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ بَيْنِهِمُ: الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ، وَخَارِجَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَرِفَاعَةَ بْنَ الْمَعْلَى، وَعَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَكِنْهُمْ اسْتَحْيُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا، فَارْجَعُوا بَعْدَ ثَلَاثٍ، وَتَبَّتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ، مِنْهُمْ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ اسْتَمَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَمْنَعُ عَنْهُ بِحَجَّاتِهِ، وَكَانَ رَامِيًا شَدِيدَ الرَّمِيِّ. فَنَثَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، وَصَارَ يَقُولُ: نَفْسِي لِنَفْسِكَ الْفِدَاءَ وَوَجْهِي لَوَجْهِكَ الْوَقَاءَ. وَكُلٌّ مِنْ كَانِ يَمُرُ وَمَعَهُ كِنَانَةٌ يَقُولُ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «انْثَرِهَا لِأَبِي طَلْحَةَ»، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ لِيَرَى مَوَاضِعَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ لَهُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَا تَنْظُرْ يَصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ الْقَوْمِ نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ.

وَمِمَّنْ تَبَّتَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ لَهُ: «أَرَمَ سَعْدٌ فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي». وَمِنْهُمْ سَهْلُ بْنُ حَنْفِيٍّ وَكَانَ مِنْ مَشَاهِيرِ الرَّمَاةِ نَضَحَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالنَّبْلِ حَتَّى انْفَرَجَ عَنْهُ النَّاسُ. وَمِنْهُمْ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرِشَةَ الْأَنْصَارِيُّ تَنَرَسَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَصَارَ النَّبْلُ يَقَعُ عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ مَنْحَنٌ حَتَّى كَثُرَ فِيهِ. وَكَانَ يَقَاتِلُ عَنِ الرَّسُولِ زِيَادَةَ بْنَ الْحَارِثِ حَتَّى أَصَابَتْ الْجِرَاحُ مَقَاتِلَهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُدْنِيَ مِنْهُ وَوَسَدَهُ قَدَمَهُ حَتَّى مَاتَ. وَقَدْ أَصَابَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شِدَادَةٌ عَظِيمَةٌ تَحْمَلُهَا بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الثَّبَاتِ، فَقَدْ أَقْبَلَ أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ يَرِيدُ قَتْلَهُ فَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْحَرِيَّةَ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ، وَقَالَ: «خَلُّوا طَرِيقَهُ»، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً كَانَتْ سَبَبَ هَلَاكِهِ وَهُوَ رَاجِعٌ، وَلَمْ يَقْتُلْ رَسُولَ اللَّهِ غَيْرَهُ لَا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ وَلَا فِي غَيْرِهَا.

وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ قَدْ حَفَرَ حُفْرًا وَغَطَّاهَا لِيَقَعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ، فَوَقَعَ الرَّسُولُ فِي حَفْرَةٍ مِنْهَا، فَأَعْمَى عَلَيْهِ، وَخُدْشَتْ رِكْبَتَاهُ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ بِيَدِهِ، وَرَفَعَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ——— وَهُمَا مِمَّنْ تَبَّتْ ——— حَتَّى اسْتَوَى قَائِمًا، فَرَمَاهُ عَتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ بِحَجْرٍ كَسَرَ رِبَاعِيَّتَهُ فَتَبَعَهُ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ فَقَتَلَهُ، وَشَجَّ وَجْهَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ شَهَابِ الزُّهْرِيِّ، وَجَرَحَتْ وَجَنَّتَاهُ بِسَبَبِ دُخُولِ حَلْقَتِي الْمَغْفَرِ فِيهِمَا مِنْ

ضربة ضربه بها ابن قَمِيَّةَ غضب الله عليه، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقين حتى نزعهما، فكَسرت في ذلك ثنيتاه، وقال حينئذٍ عليه الصلاة والسلام: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟» فأُنزل الله في سورة آل عمران: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128)

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات، لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم، خوفاً أن يصل للرسول، فوجد بطلحة نيفاً وسبعون جراحة، وشلت يده، وأصاب كعبين مالك سبع عشرة جراحة. أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين، والباقيون من الأنصار. ومن المهاجرين: حمزقبن عبد المطلب، ومصعببن عمير، ومن الأنصار حنظلةبن أبي عامر، وعمروبن الجموح، وابنه خلادبن عمرو، وأخو زوجه والدُ جابر بن عبد الله، فأنت زوج عمرو هند بنت عمرو بن حرام وحملتهم: زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة، فنهى عليه الصلاة والسلام عن الدفن خارج أحد، فرجعوا. وقتل سعدبن الربيع، وأرسل عليه الصلاة والسلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى، وبه رمق، فقيل له: إن رسول الله يسأل عنك، فقال لمبلغه: قل لقومي: يقول لكم سعدبن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر. وقتل أنسبن النضر عم أنسبن مالك، فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال: يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم، فلم يزل يقاتل حتى قُتل رضي الله عنه.

ومثَّلت قريش بقتلى أحد حتى إن هنداً زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة، وأخذت كبده لتأكلها، فلاكتها ثم أرسلتها، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء. ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته: نِعَمْتُ فَعَالٍ، إن الحربَ سجالٌ، يومٌ بيوم بدر، وموعدكم بدر العام المقبل، ثم قال: إنكم ستجدون في قتلكم مُثَلَّةً لم أمر بها ولم تَسُونِي. ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة ولم يعرجوا على المدينة، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم يهزموا في ذلك اليوم، وإلا لم يكن بدُّ من تعقب المشركين لهم حتى يُغَيِّرُوا على مدينتهم. ثم تَفَقَّدَ عليه الصلاة والسلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً، ودفن الشهداء كلهم بأحد، كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه. وكانوا يدفنون الرجلين والثلاثة في لحد واحد لما كان عليه المسلمون من تعب، فكان يشقُّ عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة. ولما رجع المسلمون إلى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون، وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء، وقالوا لإخوانهم: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا! (آل عمران: 156).

وهذا الذي ابتلي به المسلمون درس مهم لهم، يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا، أولهما: طاعة الرسول في أمره، فقد قال للرماة: لا تبرحوا مكانكم إن نحن نصرنا أو قهرنا، فعصوا أمره ونزلوا. والثاني: أن تكون الأعمال كلها لله غير منظورة فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة، وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا، والتهوا بالغانم حتى عوقبوا، وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التي فصلت غزوة أحد: «^١ اللهُ - «^٢ صلي الله عليه وسلم { مَنْ بَعْدَ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحْيُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)

غزوة حمراء الأسد

لما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أصبح حذراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليمتموا انتصارهم، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وألاً يخرج إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم الفرح، فضموا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يُحل، فأعطاه علي بن أبي طالب، وولى على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد وقد كان ما ظنه الرسول حقاً، فإن المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر، فأصروا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فتمادوا في سيرهم إلى مكة، وظفر عليه الصلاة والسلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر، الذي منّ عليه ببدر بعد أن تعهد ألا يكون على المسلمين، فأمر بقتله، فقال: يا محمد أقلني، وأمن عليّ، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «^١ لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعتُ محمداً مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين، اضرب عنقه يا زبير»^٢ فضرب عنقه، وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف، فإن الرجل الذي لا يحترز مما أصيب منه ليس بعاقل، فلا بدّ من الحزم لإقامة دعائم الملّك.

حوادث

وفي هذه السنة تزوج عليه الصلاة والسلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده، ولذلك كان يُسمّى ذا النورين. وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب، وأمها أخت عثمان بن مظعون، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر، وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بني هلال بن عامر، كانت تدعى في الجاهلية أم

المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش، فقتل عنها بأحد وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، وفيها ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما. وفيها حرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج، لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها، فيصعب إذاً تحريمها دفعة واحدة، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها، لأن المنكر إذا أسند تحريمه لحادثة أقرّ الجميع على تقبيحها كان ذلك أشدّ تأثيراً في النفس. فأول ما بيّن فيها قوله تعالى في سورة البقرة: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** {البقرة: 219}. فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجسم، ولما شربها بعض المسلمين وخطأ في القراءة حرمت الصلاة على السكران، فقال تعالى في سورة النساء: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}** {النساء: 43} ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ**

فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)

السنة الرابعة

سرية

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام، فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وعقد له لواءً وقال له: «سير حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمه فأغر عليهم»، وأرسل معه رجلاً، فسار في هلال المحرم حتى بلغ قطناً فأغار عليهم، فهربوا من منازلهم، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاء فأخذها، ولم يلق حرباً، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه.

سرية

وفي بدئها أيضاً بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نبیح الهذلي المقيم بعُرنة يجمع الجموع لحربه، فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهني وحده ليقته، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتقوّل حتى يتمكن، فأذن له، وقال: «انتسب لخزاعة»، فخرج لخمس خلون من المحرم، ولما وصل إليه قال له سفيان: ممّن الرجل؟ قال: من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك، فقال له: أجل، إني لفي الجمع له، فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلي حديثه، فلما انتهى إلى خيائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام، فقام وقتله، ثم ارتحل حتى أتى المدينة، ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال.

وفي صَفَرٍ أُرْسِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشْرَةَ رِجَالٍ عَيُونًا عَلَى قَرِيْشٍ، مَعَ رَهْطٍ عَصَلٍ وَالْقَارَةَ، الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطْلُبُونَ مَنْ يَفْقَهُهُمْ فِي الدِّينِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمِينَ ثَابِتَ الْأَنْصَارِيِّ، فَخَرَجُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ وَيَكْمَنُونَ النَّهَارَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالرَّجِيعِ غَدَرَ بِهِمْ أَوْلَيْكَ الرَّهْطُ، وَدَلُّوا عَلَيْهِمْ هَذِيلاً قَوْمَ سَفِيَانِ بْنِ خَالِدِ الْهَذَلِيِّ الَّذِي كَانَ قَتَلَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ، فَانْفَرُوا إِلَيْهِمْ فِيمَا يَقْرُبُ مِنْ مَائَتِي رَامٍ، وَاقْتَفَوْا آثَارَهُمْ حَتَّى قَرَّبُوا مِنْهُمْ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ رِجَالُ السَّرِيَّةِ لَجَّؤُوا إِلَى جَبَلٍ هُنَاكَ، فَقَالَ لَهُمُ الْأَعْدَاءُ: انزِلُوا وَلَكُمْ الْعَهْدُ إِلَّا نَقْتَلَكُمْ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ اعْتَرَوْا بَعْدَهُمْ، وَقَاتَلَهُمُ الْبَاقُونَ، وَمَعَهُمْ عَاصِمٌ غَيْرُ رَاضِيٍّ بِالنَّزُولِ فِي ذِمَّةِ مُشْرِكٍ. وَلَمَّا رَأَى الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ سَلَّمُوا عَيْنَ الْغَدْرِ امْتَنَعَ أَحَدُهُمْ فَقَتَلُوهُ، وَأَمَّا الْاِثْنَانِ فَبَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ مِمَّنْ كَانَ لَهُ ثَأْرٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُنَاكَ قُتِلَا. وَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمَا وَهُوَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ حِينَ أَرَادُوا قَتْلَهُ:

وَأَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِيوَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأُ يُبَارِكْ عَلَى
أَوْصَالِ شَيْلُوٍ مُمْرَعٍ

وفي صَفَرٍ وَفَدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أَبُو بَرَاءٍ عَامِرِ بْنِ مَالِكٍ مُلَاعِبُ الْأَسْنَةِ، وَهُوَ مِنْ رُؤُوسِ بَنِي عَامِرٍ، فَدَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَبْعُدْ، بَلْ قَالَ: إِنِّي أَرَى أَمْرَكَ هَذَا حَسَنًا شَرِيفًا وَلَوْ بَعَثْتَ مَعِيَ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ فَدَعَوْهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، رَجَوْتُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ». فَقَالَ أَبُو بَرَاءٍ عَامِرٌ: أَنَا لَهُمْ جَارٌ، فَأُرْسِلْ مَعَهُ الْمُنْذِرِينَ عَمْرُو فِي سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَانُوا يُسَمَّوْنَ الْقُرَاءَ لِكَثْرَةِ مَا كَانُوا يَحْفَظُونَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَسَارُوا حَتَّى نَزَلُوا بِئْرَ مَعُونَةَ، فَبِعَثُوا حَرَامِينَ مِلْحَانَ بَكْتَابَ إِلَى عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ سَيِّدِ بَنِي عَامِرٍ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الْكِتَابِ بَلْ عَدَا عَلَى حَرَامٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ اسْتَصْرَخَ عَلَى بَقِيَّةِ الْبَعْثَةِ أَصْحَابَهُ مِنْ بَنِي عَامِرٍ فَلَمْ يَرْضُوا أَنْ يَخْفُوا جِوَارَ مُلَاعِبِ الْأَسْنَةِ، فَاسْتَصْرَخَ عَلَيْهِمْ قِبَائِلُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَهُمْ رِعْلٌ وَذَكَوَانٌ وَعُصَيْبَةٌ فَأَجَابُوا وَذَهَبُوا مَعَهُ، حَتَّى إِذَا انْتَفَحُوا بِالْقُرَاءِ أَحَاطُوا بِهِمْ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، بَعْدَ دِفَاعٍ شَدِيدٍ لَمْ يُجِدْهُمْ نَفْعًا لِقَلَّةِ عَدَدِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا كَعْبِ بْنِ زَيْدٍ، وَقَعَ بَيْنَ الْقَتْلَى حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَعَمْرُو بْنُ أُمِيَّةَ كَانَ فِي سَرْحِ الْقَوْمِ. وَأَبْلَغَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَبَرَ الْقُرَاءِ فَخَطَبَ فِي أَصْحَابِهِ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ: «إِنْ إِخْوَانَكُمْ قَدَ»

لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أننا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضي عنا»، وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد، فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة.

غزوة بني النضير

يا لله، ما أسوأ عاقبة الطيش فقد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر، يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور ويشتهم من ديارهم، وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاء الخزرج، الذين كانوا يجاورون المدينة، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهد يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً. فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض من أصحابه في ديار بني النضير إذ انتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ واحداً منهم صخرة ويلقيها عليه من علو، فأطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم، فرجع وتبعه أصحابه، ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم: «أخرجوا من بلادي فقد هممت بما هممت من الغدر». إذ الحزم كل الحزم ألا يتهاون الإنسان مع من عرف منه الغدر، فتهياً القوم للرحيل، فأرسل لهم إخوانهم المنافقون يقولون: لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرنكم واللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليوطنن الأذبار ثم لا ينصرون (12) أشد الكتاب في أبداً إنك نافقوا تر جأوا خصاصة خصاصة على خصاصة ومن أخرجتم واللّٰهُ أبداً أحداً قوتلتهم في أبداً إنهم لننصرنكم واللّٰهُ رَحِيمٌ الَّذِينَ وَإِنْ مِنْ وَاللّٰهُ فِي قُلُوبِنَا لَنَنْصُرَنَّكُمْ أَلَمْ فِي فِي أَبَدًا وَاللّٰهُ مِنْ رَحِيمٍ عَلَى وَاللّٰهُ لِلَّذِينَ سَبَقُونَا رَعُوفٌ تَرِ وَاللّٰهُ فِي مِنْ قُوتِلْتُمْ فِي أَبَدًا رَبَّنَا وَإِخْوَانِنَا عَلَى نَطِيعُ سَبَقُونَا وَإِنْ تَرِ مِنْ أَبَدًا

إِنَّهُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ فِي أَبَدًا يَقُولُونَ غِلًا وَاللّٰهُ فِي أَبَدًا الَّذِينَ وَإِنْ قُلُوبِنَا فِي أَبَدًا لِلَّذِينَ لَنَنْصُرَنَّكُمْ إِنَّهُمْ بِالْإِيمَانِ أَبَدًا فَيْكُمْ لِلَّذِينَ فِي أَبَدًا لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِنْ عَلَى نَطِيعُ أَبَدًا وَإِنْ فِي فِي رَبَّنَا لِلَّذِينَ وَإِنْ مِنْ فِي أَبَدًا قُوتِلْتُمْ فِي الَّذِينَ عَلَى رَعُوفٌ تَرِ رَبَّنَا قُلُوبِنَا

لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِنْ عَلَى وَاللّٰهُ فِي الَّذِينَ لِلَّذِينَ مِنْ وَإِنْ أَبَدًا مِنْ أَبَدًا يَشْهَدُ فِي أَبَدًا وَإِنْ رَحِيمٌ إِنَّهُمْ قُوتِلْتُمْ غِلًا فِي قُلُوبِنَا قُوتِلْتُمْ سَبَقُونَا يَخْرُجُونَ وَإِنْ وَإِنْ أَحَدًا لِلَّذِينَ وَاللّٰهُ وَإِنْ عَلَى وَاللّٰهُ سَبَقُونَا مِنْ الَّذِينَ يَشْهَدُ تَرِ فِي إِنَّهُمْ لِلَّذِينَ لَنَنْصُرَنَّكُمْ مِنْ أَبَدًا إِنَّهُمْ وَلَنْ فِي لَكَاذِبُونَ وَلَوْ سَبَقُونَا وَإِنْ فِي قُلُوبِنَا قُوتِلْتُمْ وَاللّٰهُ فِي أَبَدًا قُوتِلْتُمْ

لِإِخْوَانِهِمْ إِنَّهُمْ تَرَ نَطِيعٌ لِلَّذِينَ إِنَّكَ يَقُولُونَ وَلَئِن لَّا قُوتِلْتُمْ وَاللَّهُ فِي نَطِيعِ إِيَّاهُمْ إِنَّكَ يَقُولُونَ وَاللَّهُ قُوتِلْتُمْ
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن وَاللَّهُ كَفَرُوا قُوتِلْتُمْ وَاللَّهُ فِي سَبْقُونَا قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن وَإِن قُوتِلْتُمْ مِنَ الَّذِينَ لَنَنْصُرَنَّكُمْ
وَإِن قُوتِلْتُمْ فِي وَلَئِن عَلَى نَطِيعِ إِيَّاهُمْ فِي يَقُولُونَ تَرَ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن مِنْ أَيْدِي إِيَّاهُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ فِي أَيْدِي
يَقُولُونَ غَلًّا وَاللَّهُ فِي أَيْدِي الَّذِينَ وَإِن الَّذِينَ الَّذِينَ أَيْدِي إِيَّاهُمْ فِي أَيْدِي أُخْرِجُوا عَلَى ءَامَنُوا وَإِن سَبْقُونَا وَإِن تَرَ
قُلُوبِنَا فِيكُمْ الَّذِينَ مِنَ قُوتِلْتُمْ رَعُوفٌ إِنَّهُمْ

أَيْدِي لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن أَيْدِي إِيَّاهُمْ أَحَدًا وَاللَّهُ قُوتِلْتُمْ سَبْقُونَا رَحِيمٌ مِنْ يَشْهَدُ وَلَا أَيْدِي يَشْهَدُ لِلَّذِينَ الَّذِينَ أَيْدِي إِيَّاهُمْ
وَإِن لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن عَلَى نَطِيعِ فِيكُمْ أَلَمْ نَطِيعُ فِي وَلَئِن نَطِيعُ إِيَّاهُمْ فِيكُمْ أَيْدِي وَاللَّهُ قُلُوبِنَا لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن فِي
أَيْدِي تَرَ مِنْ قُلُوبِنَا وَاللَّهُ أَيْدِي وَإِن إِيَّاهُمْ تَرَ وَاللَّهُ فِي وَإِن قُوتِلْتُمْ مِنْ قُلُوبِنَا رَحِيمٌ فِي وَلَئِن قُلُوبِنَا قُوتِلْتُمْ سَبْقُونَا
يَخْرُجُونَ قُلُوبِنَا لَا إِيَّاهُمْ وَلَئِن أُخْرِجُوا وَإِن الَّذِينَ فِي مِنْ رَحِيمٌ غَلًّا عَلَى قُلُوبِنَا أَيْدِي رَعُوفٌ أَلَمْ أَيْدِي
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن عَلَى أَحَدًا وَإِن فِي رَعُوفٌ أَلَمْ أَيْدِي قُلُوبِنَا قُوتِلْتُمْ إِيَّاهُمْ فِيكُمْ إِيَّاهُمْ قُوتِلْتُمْ فِيكُمْ فِي مِنْ وَإِن قُوتِلْتُمْ
فِيكُمْ قُلُوبِنَا أَيْدِي لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن عَلَى نَطِيعِ الَّذِينَ سَبْقُونَا أَيْدِي وَاللَّهُ فِي تَرَ الَّذِينَ وَاللَّهُ أَيْدِي فِي وَلَئِن سَبْقُونَا
قُوتِلْتُمْ إِيَّاهُمْ رَبَّنَا أَيْدِي إِيَّاهُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن عَلَى وَاللَّهُ إِيَّاهُمْ أَحَدًا نَطِيعٌ وَلَئِن مِنْ قُوتِلْتُمْ رَحِيمٌ وَإِن فِي تَجْعَلُ
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن عَلَى وَاللَّهُ سَبْقُونَا قُوتِلْتُمْ أَيْدِي لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن وَإِن فِي إِيَّاهُمْ وَإِن أَيْدِي الَّذِينَ فِي قُلُوبِنَا أَيْدِي وَإِن
قُوتِلْتُمْ سَبْقُونَا وَإِن وَاللَّهُ فِي أَيْدِي لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن عَلَى وَلَا الَّذِينَ أَيْدِي غَلًّا فِي أَيْدِي إِيَّاهُمْ تَرَ قُلُوبِنَا نَطِيعٌ نَطِيعٌ
مِنْ أَيْدِي عَلَى وَاللَّهُ يَقُولُونَ فِي تَرَ فِي أَيْدِي إِيَّاهُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ رَحِيمٌ إِيَّاهُمْ رَعُوفٌ تَرَ

قُلُوبِنَا وَاللَّهُ قُوتِلْتُمْ قُلُوبِنَا إِيَّاهُمْ وَاللَّهُ لِلَّذِينَ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن قُلُوبِنَا سَبْقُونَا إِيَّاهُمْ رَحِيمٌ إِيَّاهُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَإِن أَحَدًا
إِيَّاهُمْ إِيَّاهُمْ الَّذِينَ أَحَدًا قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ فِي فِي أَيْدِي وَإِن الَّذِينَ أَيْدِي وَإِن وَاللَّهُ قُوتِلْتُمْ وَلَوْ

ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر، ومنهم أكابرهم حُيَيبُ أَخْطَبُ، وسَلَامِينُ أَبِي الْحَقِيقِ، ومنهم من سار
إلى أَدْرَعَاتِ بِالشَّامِ، وأَسْلَمَ مِنْهُمُ اثْنَانِ: يَامِينِ بْنِ عَمْرٍو وَأَبُو سَعْدِ بْنِ وَهْبٍ، ولم يَخْمَسْ رَسُولُ اللَّهِ مَا أَخَذَ مِنْ
بَنِي النَّضِيرِ، فَإِنَّهُ فِيءٌ لَمْ يُوَجَّفْ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، ومثَلُ هَذَا يَكُونُ لِمَعْدَاتِ الْحَرْبِ، وللرَّسُولِ، يَطْعَمُ
مِنْهُ أَهْلَهُ، ولِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، كما قال تعالى في سورة الْحَشْرِ: مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} (الحشر: 7) فَأَعْطَى عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مِنْ هَذَا الْفِيءِ فَقَرَأَ الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَرَدُّوا لِإِخْوَانِهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ مَا كَانُوا قَدْ أَخَذُوهُ مِنْهُمْ أَيَّامَ هَجْرَتِهِمْ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَرْضًا يَزْرَعُهَا وَيَدَّخِرُ مِنْهَا قُوَّةَ أَهْلِهِ عَامًا.

وفي ربيع الآخر بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه، وهم: بنو محارب وبنو ثعلبة، فتجهّز لهم، وخرج في سبعمائة مقاتل، وولّى على المدينة عثمان بن عفان، ولم يزلوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم، فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهنّ، فبلغ الخبر رجالهم، فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم وجاؤوا للحرب، فتقارب الناس، وأخاف بعضهم بعضاً. ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه الصلاة والسلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلّون، صلى بالمسلمين صلاة الخوف، فألقى الله الرعب في قلوب الأعداء، وتفرقت جموعهم خائفين منه صلى الله عليه وسلم. ومال الإمام البخاري إلى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه.

غزوة بدر الآخرة

لما أهل شعبان هذا العام كان موعد أبي سفيان، فإنه بعد انقضاء غزوة أُحد قال للمسلمين: موعدنا بدر العام المقبل، فأجابه الرسول إلى ذلك، وكان بدر محل سوق تُعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً، فلما حلّ الأجل وقريش مُجذبون، لم يتمكن أبو سفيان من الإيفاء بوعدده، فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلاً يُوسم بخلف الوعد، فاستأجر نعيمين مسعود الأشجعي، ليأتي المدينة ويُرجف بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة، فقدم نعيم المدينة وقال للمسلمين: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (آل عمران: 173) ولم يلتفت عليه الصلاة والسلام لهذا الإرجاف اتكالاً على ربه، بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي. ولم يزلوا سائرين حتى أتوا بدرًا، فلم يجدوا بها أحداً لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظاناً أن إرجاف نعيم يفيد، فيكون المخلف هم المسلمون، فسار حتى أتى مجنّة — وهي سوق معروفّة من ناحية مرّ الظهران — فقال لقومه: إن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا، أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركونهم في تجارته أحد {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} (174)

حوادث

وفي هذا العام ولد الحسين بن علي، وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين، وفيه توفي أبو سلمة رضي

الله عنه ابن عمه رسول الله، وأخوه من الرضاعة، وأول من هاجر إلى الحبشة، وفيه تزوج عليه الصلاة والسلام أم سلمة هندا زوج أبي سلمة بعد وفاته.

السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل

وفي ربيع الأول من هذا العام بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من الأعراب بدومة الجندل يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون الدنو من المدينة فتجهز لغزوهم، وخرج في ألف من أصحابه، بعد أن ولى على المدينة سباعين عرْفُطَةَ الغفاري، ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم، فلما بلغهم الخبر تفرقوا، فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم، فأصيب مَنْ أُصيبَ، وهرب من هرب، ثم نزل بساحتهم فلم يلقَ أحداً، وبتَّ السرايا فلم يجد منهم أحداً، فرجع عليه الصلاة والسلام غانماً، وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزاري، وهو الذي كان يسميه عليه الصلاة والسلام الأحمق المطاع، لأنه كان يتبعه ألف قنّاة، وأقطع عليه الصلاة والسلام أرضاً يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة لأن أرضه كانت قد أُجدبت.

غزوة بني المصطلق

في شعبان، بلغه عليه الصلاة والسلام أن الحارث بن أبي ضرار، سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أُحد، يجمع الجموع لحربه، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير، وولى على المدينة زيد بن حارثة، وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة. وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة مثلها، يرجون أن يصيبوا من عرَضِ الدنيا، وفي أثناء مسيره عليه الصلاة والسلام التقى بعين بني المصطلق، فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله. ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه، وأنهم قتلوا جاسوسه، خاف هو وجيشه خوفاً شديداً حتى تفرق عنه بعضهم، ولما وصل المسلمون إلى المُرَيْسِعِ تصافَّ الفريقان للقتال، بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا، فتراموا بالنبل ساعة، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب، بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية، واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة آلاف، واستعمل الرسول على ضبطها مولاة شقران، وعلى الأسرى بريدة. وكان في نساء

المشركين برة بنت الحارث سيد القوم، وقد أخذ من قومها مئتا بيت أسرى وزعت على المسلمين، وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم، فإن بني المصطلق من أعز العرب داراً فأسر نساءهم بهذه الحال صعب جداً، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل المسلمين يمتنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم، فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية، فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا فمنوا عليهم بالعتق، فكانت جويرية أيمناً امرأة على قومها كما قالت عائشة رضي الله عنها، وتسيب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

وقد حصل في هذه الغزوة نادران، لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعادتا بالتفريق على المسلمين.

فأولاهما: أن أجيراً لعمرين الخطاب اختصم مع حليف للخزرج، فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه، فاستصرخ بقومه الخزرج، واستصرخ الأجير بالمهاجرين، فأقبل الذعر من الفريقين، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» وهي ما يقال في الاستغاثة: يا فلان. فأخبر الخبر، فقال: «دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة»، ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة، فلما بلغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضباً، وكان عنده رهط من الخزرج، فقال: ما رأيت كالسيوم مذلة أو قد فعلوها؟ نافرونا في ديارنا، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله: لئن { (المنافقون: 8)، ثم التفت إلى من معه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفصوا من عنده، وكان في مجلسه شاب حديث السن، قوي الإسلام، اسمه زبيد بن أرقم، فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه، وقال: «يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت؟» فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته. قال: «لعله أخطأ سمعك»، فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أبي أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك. وقال: «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟» ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه الصلاة والسلام شغل الناس عن التكلم في هذا الموضوع، فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت، فقال: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى

المدينة ليخرجنَّ الأعرزَ منها الأذلَّ». قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئتَ، هو والله الذليلُ وأنت العزيزُ، ثم سارَ عليه الصلاة والسلام بالناس سيراً حثيثاً حتى أدتهم الشمس، فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجوداً مَسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً.

وكلمَ رجالٌ من الأنصار عبدَ الله بنَ أبي في أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر. وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بنَ أبي وإخوانه وصدقت زبدين أرقام. ولما بلغ ذلك عبد الله بنَ أبي، استأذن رسول الله في قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره، فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد، فأمره عليه الصلاة والسلام بالإحسان إلى أبيه.

حديث الإفك

النادرة الثانية: وهي أفطع من الأولى وأجلب منها للمصائب، وهي رمي عائشة الصديقة، زوج رسول الله بالإفك، فاتهموها بصفوانين المعطل السلمي، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه الصلاة والسلام ليلة بالرحيل، وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها، فلمست صدرها فإذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها، فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها، فاحتلموا هودجها ظانين أنها فيه، لأن النساء كنَّ إذ ذاك خفافاً لم يَغشهنَّ اللحم، فلم يستنكر القوم خفة اليهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها، وليس بالمنزل داع ولا مجيب، فغلبتها عيناها فنامت، وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوانين المعطل، فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان، والذي تولى كبر الإفك عبد الله بنَ أبي.

ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً، والناس يفيضون في قول الإفك، وهي لا تشعر بشيء، وكانت تعرف في رسول الله رقة إذا مرضت، فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: «كيف حالكم؟» مما جعلها في ريب عظيم. فلما نَهَتْ خرجت هي وأم مسطحين أئاماً — أحد أهل الإفك — للتبرز خارج البيوت، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح فقالت عائشة: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ فقالت يا هنتاه أو لم تسمعي ما قالوا؟ فسألته عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر، فزادت مرضاً على مرضها. ولما جاءها عليه الصلاة والسلام

كعادته، استأذنته أن تمرّض في بيت أبيها، فأذن لها، فسألت أمها عما يقول الناس، فقالت: يا بنيّة هوني عليك، فوالله لقدما كانت امرأة قطّ وضيئه عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقالت عائشة: سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم. وفي خلال ذلك كان عليه الصلاة والسلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيراً. وقال علي بن أبي طالب: لم يُضَيِّقَ اللهُ عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدّقك. فدعا عليه الصلاة والسلام بربيرة جارية عائشة، وقال لها: هل رأيت من شيء يرئيك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قطّ أغمصه غير أنها جارية حديثة السنّ، تنام عن عجبها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام عليه الصلاة والسلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: «مَنْ يَعدُرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي». فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أعزرك منه، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة الخزرجي وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أنه يُقتل، فقام أسيد بن حُضير، وقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفّصهم حتى سكتوا. أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم. وبينما هي مع أباها إذ دخل النبي عليه الصلاة والسلام فسلم ثم جلس فقال: «أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف وتاب، تاب الله عليه»، فتقلص دمع عائشة، وقالت لأباها: أجييا رسول الله، فقالا: والله ما ندري ما نقول، فقالت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر — والله يعلم أني منه بريئة — لتصدقني فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ { (يوسف: 18).

ثم تحولت واضطجعت على فراشها، ولم يزاول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّبًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ (20) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَآكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (النور: 22) فقال أبو بكر: بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مسطح. فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهريين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن، فمتى رأوا باباً لها ولجوه فنعوذ بالله منهم.

غزوة الخندق

لم يقرّ لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها، بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردّوا بلادهم، فذهب جمع منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش، وحرّضوهم على حرب رسول الله ومنّوهم المساعدة، فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه، ثم جاؤوا إلى قبيلة غطفان وحرّضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحاً، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، وعددهم أربعة آلاف، معهم ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير. وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذي جازى إحسان رسول الله كفراً، فإنه كما قدّمنا أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه، حتى إذا سمن خفه وحافره، قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه، وكان معه ألف فارس. وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المري وهم أربعمائة، وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن ربيعة، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة، وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي، وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدتهم العام أبو سفيان. ولما بلغه عليه الصلاة والسلام أخبار هاتيه التجهيزات، استشار أصحابه فيما يصنع أيّمكن بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرّار؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن

العرب تعرفه، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بعمله، وشرعوا في حفره شمالي المدينة من الحرّة الشرقية إلى الحرّة الغربية وهذه هي الجهة التي كانت عورة توتى المدينة من قبلها. أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل، لا يتمكن العدو من الحرب جهتها، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق، لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام، فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكيناً علينا وثبتت الأقدام إن لاقينا والمشركون قد بَعُوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا وأقام الجيش في الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى سلع وهو جبل مطل على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عباد. أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال، وأما غطفان فنزلت جهة أُحد. وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التي لم تكن العرب تعرفها، فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل. ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق، منهم: عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن عبد ود وآخرون، وقد برز علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لعمر بن عبد ود فقتله وهرب إخوانه، وهوى في الخندق نوفل بن عبد الله، فاندقت عنقه، ورُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أكله، وهو شريان الذراع، واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذلك اليوم وقضوها بعد، وجعل عليه الصلاة والسلام على الخندق حُرّاً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل، وكان يحرس بنفسه ثلثة فيه مع شدة البرد، وكان عليه الصلاة والسلام يبشّر أصحابه بالنصر والظفر ويَعِدُّهم الخير.

أما المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم حتى قالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} (الأحزاب: 12) وانسحبوا قائلين: إن بيوتنا عورة نخاف أن يُغير عليها العدو {وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} (الأحزاب: 13) واشتدت الحال بالمسلمين، فإن هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة، والذي زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يُساكنونهم في المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهد، وسبب ذلك أن حُيَّين أُخطب سيد بني النضير المجلين توجه إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة، وكان له كالشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فحسن له نقض العهد، ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين.

ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل مسلمين أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة، خوفاً على النساء والذري، وأرسل الزبير بن العوام يستجلي له الخبر، فلما وصلهم وجدهم حانقين، يظهر على وجوههم الشر، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أمامه، فرجع وأخبر الرسول بذلك. وهناك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً، لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون، وتكلم المنافقون بما بدأ لهم، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يرسل لعبيته بن حصن، ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان، فأبى الأنصار ذلك قائلين: إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار، أفيعد الإسلام يشاركوننا فيها؟ وإذا أراد الله العناية بقوم هياً لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون. فانظر إلى هذه العناية من الله للمتمسكين بدينه القويم. جاء نعيمين مسعود الأشجعي وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان، فقال: يا رسول الله إنني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي فمرني بأمر حتى أساعدك. فقال: «أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذ لنا ما استطعت فإن الحرب خدعة».

الخدعة في الحرب

فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين، فلما رآه أكرموه لصداقته معهم، فقال: يا بني قريظة تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم، وإني محدثكم حديثاً فاكنتموه عني، قالوا: نعم، فقال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم. وأما أنتم فتساكنون الرجل — يريد الرسول — ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى ألا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك.

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم، وقال: أنتم تعرفون ودي لكم، ومحيتي إياكم، وإني محدثكم حديثاً فاكنتموه عني، قالوا: نفع، فقال لهم: إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه فقالوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرفهم ونعطيهم لك، وترد جناحنا الذي كسرت — يريد بني النضير — فرضي بذلك منهم. وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً.

ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً، فأرسل أبو سفيان وفداً لقرينة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا: إننا لا يمكننا أن نقاتل في السبت — وكان إرساله لهم ليلة السبت — ولم يُصينا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا نتركونا ونذهبوا إلى بلادكم، فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود، وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً، وكان عليه الصلاة والسلام قد ابتهل إلى الله الذي لا ملجأ إلا إليه ودعاه بقوله: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم» وقد أجاب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام، فأرسل على الأعداء ريحاً باردة في ليلة مظلمة، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليلة المدلّمة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح. ولما سمع عليه الصلاة والسلام الضوضاء في جيش العدو، قال لأصحابه: «لا بدّ من حادث، فمن منكم ينظر لنا خبر القوم؟» فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً. وكان فيهم حذيفة بن اليمان، فقال عليه الصلاة والسلام: «تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب» فقال: يا رسول الله البرد شديد، فقال: «أذهب في حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم» فخاطر رضي الله عنه بنفسه في خدمة نبيّه، حتى اطلع على جليّة الخبر، وأن الأعداء عازمون على الرحلة.

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم، أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم: ليتعرّف كل منكم أخاه، وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو، وقد حلّ عقاب بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، فقال له صفوان بن أمية: إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل، وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم، وأراح الله عن المسلمين هذه الغمة التي تحزّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين، ولو لا لطف الله وعنايته بهذا الدين مئة منه وفضلاً لساعت الحال. وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة، وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13)﴾

غزوة بني قريظة

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بأصحابه، وأراد أن يخلع لباس الحرب، أمره الله باللحوق ببني قريظة، حتى يظهروا أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود، ولا تربطهم المواثيق، ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة، فقال لأصحابه: «لا يُصَلِّينَ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فساروا مسرعين، وتبعهم عليه الصلاة والسلام ركباً على حماره، ولوأوه بيد عليين أبي طالب، وخليفته على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف، وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاًها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة، ولم يصلها الآخرون إلا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يُعَنَّفَ فريقاً منهم.

ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم، وأرادوا التصل من فعلتهم القبيحة وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر، ولكن أتى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم؟ فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً، طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم، فطلبوا أن يجلبوا بأنفسهم من غير مال ولا سلاح فلم يرض أيضاً، بل قال: لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً، فقالوا له: أرسل لنا أبا لبابة نستشيره، وكان أوسياً من حلفاء بني قريظة، له بينهم أولاد وأموال، فلما توجه إليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول. فقال لهم: انزلوا، وأوماً بيده إلى حلقه، يريد: أن الحكم الذبح، ويقول أبو لبابة: لم أبارح موقفي حتى علمت أني خنت الله ورسوله، فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً من مقابلة رسول الله، وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد حتى يقضي الله فيه أمره. ولما سأل عنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما فعل، فقال: أما لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل ففتركه حتى يقضي الله فيه. ثم إن بني قريظة لما لم يروا بداً من النزول على حكم رسول الله فعلموا، فأمر برجالهم فكففوا، فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا: نعم. واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي أصيب به في الخندق، وكان مقيماً بخيمة في المسجد معدة لمعالجة الجرحى، فأرسل عليه الصلاة والسلام من يأتي به، فحملوه على حماره، والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له: أحسن في مواليك، ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه؟ فقال رضي الله عنه: لقد

آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

ولما أُقْبِلَ عَلَى الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ جُلُوسٌ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَوْمُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزَلُوهُ»، ففعلوا، وقالوا له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولّك أمر مواليك لتحكم فيهم. وقال له الرسول: «احكم فيهم يا سعد». فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال: عليكم عهدُ الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ فقالوا: نعم، فالتفت إلى الجهة التي فيها الرسول وقال: وعلى مَنْ هنا كذلك؟ وهو غاضٌّ طرفه إجلالاً، فقالوا: نعم، فقال: فإني أحكم أن تقتلوا الرجال، وتسبوا النساء والذرية، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد» لأن هذا جزاء الخائن الغادر. ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم، وجمعت غنائمهم، فكانت ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وحرقة، ووجد أثاثاً كثيراً، وآنية، وأجمالاً نواضح، وشياهاً، فخمّس ذلك كله مع النخل والسبي للراجل ثلث الفارس، وأعطى النساء اللاتي يُمرضن الجرحى، ووجد في الغنيمة جِرار خمر فأريقته. وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضي الله عنه وأرضاه. كان في الأنصار كَأبي بكر في المهاجرين. وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندق، وكان عليه الصلاة والسلام يحبه كثيراً وبشّره بالجنة على عظيم أعماله.

وعقب رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على أبي لُبَابَةَ بقوله: وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب. وسيأتي للقارىء قريباً اليوم الذي يعاقبون فيه.

زواج زينب بنت جحش

وفي هذا العام تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش — وأمها أميمة عمته — بعد أن طلقها مولاة زيد بن حارثة. وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفّف أهلها من ذلك لمكانها في الشرف العظيم، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي، ويعتقدون أن لا كفؤ من سواهم لبناتهم، وزيد — وإن كان الرسول تبناه — ولكن هذا لا يُلحِّقُه بالأشراف، فلما نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36) أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ (الأحزاب: 37). وأخفى في نفسه ما أبداه الله، فَبَتَّ اللهُ حَكْمَهُ بِإِبْطَالِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَهِيَ: تَحْرِيمُ زَوْجِ الْمُتَبَنَّى بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} (الأحزاب: 37). ثم إن الله حرم التبني

على المسلمين لما فيه من الأضرار، وأنزل فيه في سورة الأحزاب: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} (40)

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا ممن ضاع رشده، ولم يفقه حقيقة ما يقول، فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت في قلبه، فقال: سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك، فرأى من الواجب عليه فراقها، فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك... إلخ. وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه، وزينب بنت عمته أسلمت قديماً ورسول الله بمكة، فكيف لم يرها، وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة، ورسول الله هو الذي زوجها زيدا؟ فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك. ومن منّا يتصور السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه، ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله في سورة الحجر: {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} (الحجر: 88). وفي سورة طه المكية أيضاً: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (طه: 131). ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعية، وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها؟ إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا. ولو حدث أمر مثل ذلك من أقل الناس لعيب عليه، فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً، وأبعدهم عن الدنيا، وأشدّهم ذكاءً وفراسة حتى مدحه الله بقوله في سورة ن: {وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} (4) وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على

المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً} (الأحزاب: 37). والذي أبداه الله هو زواجه بها، ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد.

الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبّه ويذكره كثيراً، ويودّ أن ينزل فيه قرآن، وكان يقول: لو أطاع فيكن ما رأيتن عين، فنزل في سورة الأحزاب: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} (الأحزاب: 53). فقال بعضهم: أنتهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة فنزل بعد الآية المتقدمة: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ

ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} (الأحزاب: 53). أما غير أزواجه عليه الصلاة والسلام من المؤمنات، فأمرن بغض الأبصار، وحفظ الفروج، كما أمر بذلك الرجال، وأمرن ألا يبدين زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها كالخاتم في الإصبع، والخضاب في اليد، والكحل في العين، أما ما خفي منها فلا يحل إبدائه كالسوار للذراع، والذمّج للعضد، والخلخال للرجل، والقِلادة للعنق، والإكليل للرأس، والوشاح للصدر، والقرط للأذن. والمراد بالزينة الظاهرة والخفية موضعها، وأمرن أيضاً بأن يضربن بخرمهن على الجيوب كيلا تبقى صدورهن مكشوفة، فإن النساء إذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نورهن وصدورهن وما حواليتها، وكن يسدن الخمر من ورائهن، ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال. وإذا كان النهي عن إظهار صوت الحلي بعدما نهين عن إظهار الحلي، علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ، قال تعالى في

سورة النور: {وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور: 31). وكان النساء في أول الإسلام كما كن في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار، لا فرق بين الحرّة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان، وربما تعرضوا للحرّة بعلّة الأمة يقولون: حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن زي الإماء بأن يدين عليهن من جلابيهن ليغطي الوجه والأعطاف ليحتشمن، ويهين فلا يطمع فيهن طامع، قال تعالى في سورة الأحزاب: {لِيَأْيَهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (59)

أما حجب المرأة عمّن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد السلف الصالح، فإن الشارع الحكيم سنّ ذلك ليكون الرجل على علم مما يُقدّم عليه، حتى يتم الوفاق والوثاق بين الزوجين في أمر أجمع عليه أئمة الدين. قال حجة الإسلام الغزالي في «الإحياء»: وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحَبَّ النظر، فقال: «إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة، فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما» — أي: يؤلف بينهما — من وقوع الأدمة على الأدمة، وهي الجلدة الباطنة، والبشرة: الجلدة الظاهرة، وإنما ذكر

ذلك للمبالغة في الائتلاف، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن في أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهنّ فليُنظر إليهنّ» قيل: كان في أعينهنّ عمش. وقيل: صغر. وكان بعض الصالحين لا يَنكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور، وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فأخره هم وغم. ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التي تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حسّنا عند عامة المسلمين في العصور الأولى حجب المرأة مطلقاً حسماً للمفاسد ودرءاً للفتنة.

فرض الحج

وفي هذا العام — على ما عليه الأكثرون — فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار، فيتجهوا إلى الله ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره ويُعينهم على اتباع دينه القويم. وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى.

السنة السادسة

سرية

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة، أرسل عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بني بكرين كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضريّة، فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة، وهرب باقيهم، فاستاقت السرية النعم والشياه، وعادوا راجعين إلى المدينة، وقد التقوا وهو عائدون بثمامة بن أثال الحنفي، من عظماء بني حنيفة، فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق، فإنه أطلق إيساره بعد ثلاث أبي فيها الانقياد للإسلام بعد أن عرض عليه. ولما رأى ثمامة هذه المعاملة، وهذه المكارم، رأى من العيب أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد، فرجع إلى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله: يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الدين كله إليّ. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فقد أصبح أحبّ البلاد إليّ. % فسرّ عليه الصلاة والسلام كثيراً بإسلامه لأن من ورائه قوماً يطيعونه. ولما رجع ثمامة إلى بلاده مرّ بمكة معتمراً وأظهر فيها إسلامه، فأرادت قريش إيذاه، فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثمامة فتركوه، ومع ذلك فقد حلف هو ألا يرسل إليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا، فجهدوا جداً، ولم يروا بداً من الاستغاثة برسول الله، فعاملهم عليه الصلاة والسلام بما جُبِل عليه من الشفقة والرحمة، وأرسل لثمامة أن يُعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل. وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة في الإسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتدّ أكثر أهل بلاده، فكان ينهى قومه عن اتباع مُسيلمة، ويقول لهم: إياكم وأمرًا مظلماً لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله على من

اتبعه، فثبت معه كثير من قومه رضي الله عنه.

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصمين ثابت وإخوانه، ولم يزل رسول الله حزينا عليهم متشوقا للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة، فأمر أصحابه بالتجهز، ولم يظهر مقصده كما هي عادته عليه الصلاة والسلام في غالب الغزوات، لتعمى الأخبار عن الأعداء، وولى على المدينة ابن أم مكتوم، وسار في مائتي راكب معهم عشرون فرسا، ولم يزل سائرا حتى مقتل أصحاب الرجيع، فترحم عليهم ودعا لهم، ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا في الجبال، فأقام عليه الصلاة والسلام بديارهم يومين يبعث سرايا فلا يجدون أحدا، ثم أرسل بعضا من أصحابه ليأتوا عسفان حتى يعلم بهم أهل مكة فيدخلهم الرعب، فذهبوا إلى كراع الغميم، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وهو يقول: «أيون، تائبون، لربنا حامدون، أعود بالله من وعاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال».

غزوة الغابة

كان للنبي عليه الصلاة والسلام عشرون لقة ترعى بالغابة، فأغار عليها عيينة بن حصن في أربعين فارسا واستلبها من راعيها، فجاءت الأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام، والذي بلغه هو سلمة بن الأكوع، أحد رماة الأنصار، وكان عداء فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم، وجعل يرميهم بالنبل، فإذا وجهت الخيل نحوه رجع هاربا، فلا يلحق، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل، فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيرا مما بأيديهم من الرماح والأبراد ليخففوا عن أنفسهم، حتى لا يلحقهم الجيش، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش، فإن الرسول دعا أصحابه فأجابوه، وأول من انتهى إليه المقداد بن عمرو، فقال له: «اخرج في طلب القوم حتى ألحقك» وأعطاه اللواء فخرج، وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو، فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان، واستنفذ المسلمون غالب اللقاح، وهرب أوائل القوم بالبقية، وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة في أثر القوم، ليأخذهم على غرة، وهم نازلون على أحد مياههم، فقال له عليه الصلاة والسلام: «مكثت فأسجح» ثم رجع بعد خمس ليال.

سرية

كان بنو أسد الذين مرّ ذكرهم كثيراً ما يؤذون مَنْ يمرّ بهم من المسلمين، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام عكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليُغير عليهم، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا، وهناك وجدوا رجلاً نائماً فأمنوه ليدلّهم على نَعَم القوم، فدلّهم عليها فاستاقوها، وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً.

سرية

وفي ربيع الأول بلغه عليه الصلاة والسلام أن من بذى القَصّة يريدون الإغارة على نَعَم المسلمين التي ترعى بالهيفاء، فأرسل لهم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين، فبلغ ديارهم ليلاً، وقد كَمَن المشركون حينما علموا بهم، فنام المسلمون، ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم، فتواثبوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلواهم، غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قُتِل، فعاد إلى المدينة، وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر ليقصّ من الأعداء، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نَعَمهم ورجع.

سرية

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين في سيرهم، فأرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في ربيع الآخر ليُغير عليهم في الجَموم فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا، ووجدوا هناك امرأة من مُزينة دلّتهم على منازل بني سليم، أصابوا بها نَعماً وشاء، ووجدوا رجالاً أسروهم، وفيهم زوج تلك المرأة، فرجعوا بذلك إلى المدينة، فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها.

سرية

بلغ الرسول أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة، فأرسل لها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكباً ليعترضها، فأخذها وما فيها وأسر مَنْ معها من الرجال، وفيهم أبو العاصين الربيع، زوج زينب بنت رسول الله، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانةً، فاستجار بزوجه زينب فأجارته، ونادت بذلك في مجمع قريش، فقال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون يد واحدة، يُجير عليهم أديانهم، وقد أجرنا من أجرنا» وهذا أبلغ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين وردّ عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيء، فذهب إلى مكة. فأدى لكل ذي حقّ حَقّه، ورجع إلى المدينة مسلماً، فردّ عليه رسول الله زوجته.

سرية

وفي جمادى الآخرة أرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً، للإغارة على بني ثعلبة، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف. فتوجهت السرية لذلك، ولما رأهم

الأعداء ظنّوهم طليعة لجيش رسول الله، فهربوا وتركوا نَعْمَهُمْ وشاءهم، فاستأقها المسلمون ورجعوا إلى المدينة بعد أربع ليالٍ.

سرية

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام زيدبن حارثة، ليُغَيِّرَ على بني فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما معه، وكادوا يقتلونه، فلما جاء المدينة، وأخبر الرسول الخبر، أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين في وادي القرى. فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً، وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة، فاستوهبها عليه الصلاة والسلام ممّن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة.

سرية

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الرحمان بن عوف مع سبعمئة من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل، وقد وصّاهم عليه الصلاة والسلام قبل السفر بقوله: «اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيّه فيكم» ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلّوا بديار العدو، فدعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصْبَغِين عمرو النصراني، وأسلم معه جمع من قومه، وبقي آخرون راضين بإعطاء الجزية، فترجع عبد الرحمان بنت رئيسهم، كما أمره بذلك عليه الصلاة والسلام، وهذه أقرب واسطة لتمكين صلوات الودّ بين الأمراء بحيث يهّمّ كلّ ما يهّمّ الآخر، فنعما هي سياسة السلم والمحبة.

سرية

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام عليبن أبي طالب في مائة لغزو بني سعد بن بكر بفدك لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يُعطونه من تمر خيبر، فسارت السرية، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس للعدوّ، وكانوا قد أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها، فطلبوا منه أن يدلّهم على القوم وهو آمن، فدلّهم على موضعهم، فاستأق منه المسلمون نَعْمَ القوم، وهرب الرعاة، فحدّروا قومهم، فدأخلهم الرعب، وتفرقوا، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بغير وألفا شاة، وردّ الله كيدَ المشركين فلم يمدّوا اليهود بشيء.

قتل أبي رافع

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين، وهو سيدهم، أبو رافع سَلَّام بن أبي الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز، لما كان له من المهارة في التجارة، وكان ذا ثروة طائلة يُقَلَّبُ بها قلوبَ اليهود كما يريد، فانتدب له عليه الصلاة والسلام مَنْ يَقْتله، فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عتيك، ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعبين الأشرف، فإن من نِعِمَّ الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله، فلا تعمل الأوسُ عملاً إلا اجتهد الخزرجُ في مثله، فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصَّاهم ألا يقتلوا وليداً ولا امرأة، فساروا حتى أتوا خيبر، فقال عبد الله لأصحابه: مكانكم، فإني منطلقٌ للبوابِ ومتلطفٌ له لعلِّي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوب كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخل وكَمَنَ حتى نام البواب، فأخذ المفاتيح، وفتح ليسهل له الهرب، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وصار يفتح الأبواب التي تُوصَلُ إليه، وكلما فتح باباً أغلقه من الداخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، فلم يمكنه تمييزه، فنادى يا أبا رافع قال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً، وعند ذلك قالت امرأته: هذا صوت ابن عتيك، فقال لها: تكلتك أمك وأين ابن عتيك الآن؟ فعاد عبد الله للنداء مُغَيِّراً صوته، قائلاً: ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه فضربه أخرى لم تُغن شيئاً، فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغير صوته، فوجده مستلقياً على ظهره، فوضع السيف في بطنه، وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم، ثم خرج من البيت، وكان نظره ضعيفاً فوق من فوق السلم فكسرت رجله، فعصّبها بعمامته، ثم انطلق إلى أصحابه، وقال: النجاة، قتل

والله أبو رافع، فانتهوا إلى الرسول، فحدّثوه ثم قال لعبد الله: «ابسط رجلك» فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشنّكها قط، وعادت أحسن ما كانت فانظر — رعاك الله — إلى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عنهم وأرضاهم. سرية

ولما قُتل كعبٌ ولّى اليهود مكانه أسيرين رزام، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يستعلم له خبره، فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه: سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحدٌ قبلي، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه، وسعى في ذلك. فأرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالتهم، فخرجوا حتى قدموا خيبر، وقالوا للأسير: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم، ولي مثل ذلك، فأجابوه، ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيؤليه الرسول على خيبر، فيعيش أهلها بسلام، فأجاب إلى ذلك وخرج في ثلاثين يهودياً كلُّ يهودي رديفٌ لمسلم، وبينما هم في الطريق ندم أسير على مجيئه، وأراد التخلّص مما فعل بالغدر بمن أمّته فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة، فقال له: أغدراً يا عدو الله؟ ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامّةً فخذته، ولم يلبث أن هلك،

فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوه عن آخرهم. وهذه عاقبة الغدر.

قصة عُكْلٍ وَعُرَيْبَةَ

قدِمَ على رسول الله في شِوَالِ جماعة من عُكْلٍ وَعُرَيْبَةَ، فأظهروا الإسلام وبايعوا رسول الله. وكانوا سيقاماً، مصفرةً ألوانهم، عظيمةً بطونهم، فلم يوافقهم هواء المدينة، فأمر لهم عليه الصلاة والسلام بذودٍ من الإبل معها راع، وأمرهم باللحوق بها في مرعاها ليشرَبوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا، ولما تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً، فقتلوا الراعي ومثّلوا به، واستاقوا الإبل، فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كُرْزِينَ جَابِرَ الْفَهْرِيِّ فِي عَشْرِينَ فَارِساً فَلَاحَقُوا بِهِمْ، وَقَبِضُوا عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَلَمَّا جِيءَ بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَنْ يَمْتَلَّ بِهِمْ كَمَا مَتَّلُوا بِالرَّاعِي، فَقَطَّعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَأَلْقُوا بِالْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا، فَهَكَذَا يَكُونُ جَزَاءُ الْخَائِنِ الَّذِينَ لَا يُنْتَظَرُ مِنْهُمُ صِلَاحٌ، وَعَمَلُ هَؤُلَاءِ الشَّرِيرِينَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى فِسَادِ الْأَصْلِ، وَلَوْمِ الْعَشِيرَةِ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْمُتَّلَةِ.

سرية

جلس أبو سفيان بن حرب يوماً في نادي قومه، فقال: ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غداً فإنه يمشي بالأسواق لنستريح منه؟ فتقدم له رجل وتعهده بما أراد، فأعطاه راحلةً ونفقةً وجَهَّزَهُ لذلك. فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صُبْحَ سَادِسَةِ مِنْ خُرُوجِهِ، فَسَأَلَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فَذُلَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَسْجِدِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَلَمَّا رَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لِيرِيدُ غَدَاً، وَإِنَّ اللَّهَ مَانِعِي مِنْهُ» فَذَهَبَ لِيَنْحِنِي عَلَى الرَّسُولِ، فَجَذَبَهُ أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ مِنْ إِزَارِهِ، وَهَنَالِكَ سَقَطَ الْخَنْجَرُ، فَندم الرجل على فعلته، ثم سأله عليه الصلاة والسلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه، فخلّى عليه الصلاة والسلام سبيله. فقال الرجل: والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي، ثم إنك أطلعت على ما هممتُ به مما لم يعلمه أحد، فعرفتُ أنك ممنوع، وأنت على حق، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان، ثم أسلم. وعند ذلك أرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري، وكان رجلاً جريئاً فاتكأ في الجاهلية، وأصحابه برفيق، ليقتل أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه، فلما قدما مكة توجهتا ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلاه، فعرف عمراً أحد رجال مكة، فقال: هذا عمرو بن أمية ما جاء إلا بشر، فلما رآهم علموا به لم يجد مناصاً من الهرب، فاصطحب معه رفيقه، ورجعا إلى المدينة، وكان الله سبحانه أراد أن يعيشت أبو سفيان حتى يُسَلِّمَ بيده مفاتيح الكعبة للمسلمين، ويعتق الدين الحنيفي القويم.

رأى عليه الصلاة والسلام في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرّين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه، حذراً من أن تردّهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤوا عليه لأنهم ظنوا ألاّ ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً، وتخلّصوا بأن قالوا: شغلّتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدّتهم ألفاً وخمسمائة، وولى على المدينة ابن أم مكتوم، وأخرج معه زوجته أم سلمة، وأخرج الهدّي ليعلّم الناس أنه لم يأت محارباً، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرب، لأن الرسول لم يرضَ أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون، ثم سار الجيش حتى وصل عُسفان فجاءه عينه يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدّوا المسلمين عن مكة وألاّ يدخلوها عليهم عنوةً أبداً. وتجهزوا للحرب، وأعدّوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدّوا المسلمين عن التقدم، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله. فسار بهم في طريق وعرة، ثم خرج بهم إلى مستوٍ سهل يملك مكة من أسفلها، فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر. ولما كان عليه الصلاة والسلام بنتيّة المُرّار بركت ناقته. فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلّأتِ القَصْوَء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلّأت وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل. والذي نفسُ محمد بيده لا تدعوني قريش لِحَصَلَة فيها تعظيمُ حرّامات الله إلاّ أحبّتهم إليها» مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم، ولكن كَفَّ اللهُ أيدي المسلمين عن قريش، وكَفَّ أيدي قريش عن المسلمين كيلاّ تنتهك حرّامات البيت الذي أراد الله أن يكون حرماً آمناً، ويوطد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم

فيه. ثم أمرهم عليه الصلاة والسلام بالنزول أقصى الحديبية وهناك جاء بُدَيْل بن وَرَقَاء الخزاعي رسولاً من قريش، يسأل عن سبب مجيء المسلمين، فأخبره عليه الصلاة والسلام بمقصده، فلما رجع بُدَيْل إلى قريش وأخبرهم بذلك، لم يتقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده، وقالوا: أيريد محمدٌ أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينهم من الحرب ما بيننا؟ والله لا كان هذا أبداً ومنا عَيْنُ تَطْرَف. ثم أرسلوا حُلَيْس بن علقمة سيّد الأحابيش وهم حلفاء قريش، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: «هذا من قوم يعظّمون الهدّي، ابعثوه في وجهه حتى يراه»، ففعلوا، واستقبله الناس يُلبّون، فلما رأى ذلك حُلَيْس رجع، وقال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا. أتُحجّ لحم

وجذام وحمير، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكت قريش، وربّ البيت إن القوم أتوا معتمرين.

فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك بالمكاييد، ثم أرسلوا غُرُوقَيْن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فتوجه إلى رسول الله، وقال: يا محمد قد جمعت أوباشَ الناس، ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لتفضّها بهم إنها قريش قد خرجت تعاهد الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وإيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك. فنال منه أبو بكر، وقال: نحن ننكشف عنه؟ ويحك

وكان عروة يتكلم وهو يمسّ لحية رسول الله، فكان المغيرتين شعبة يقرع يده إذا أراد ذلك، ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به، وإذا تكلموا خفّضوا أصواتهم عنده، ولا يُجذون النظر إليه. فقال: والله يا معشر قريش جئت كسرى في ملكه وقبصرَ في عظمته، فما رأيتُ ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً، فانظروا رأيكم، فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح، مع أنني أخاف ألا تنصروا عليه. فقالت قريش: لا تتكلم بهذا، ولكن نردّه عامنا ويرجع إلى قابل. ثم إن الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصده، فتوجّه وتوجّه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقرابهم، وأمر عليه الصلاة والسلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وأنّ الله مُظهر دينه، فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي فبلّغ ما حمل، فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً. ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع، ثم إنهم حبسوه، فشاع عند المسلمين أن عثمان قُتل، فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك: «لا نبرح حتى نُنَاجِزَهم الحرب».

بيعة الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك — سميت بعد بشجرة الرضوان — على الموت، فشاع أمر هذه البيعة في قريش فدخلهم منها رعب عظيم، وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين لعلمهم يصيبون منهم غرّة، فأسره حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدؤوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلاً وقُتل من المسلمين واحد.

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكاملة في الصلح، فلما جاء قال: يا محمد إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا فابعث بمن أسرت، فقال: حتى ترسلوا من عندكم. وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه، ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش وهي:

- 1 — وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات.
- 2 — من جاء المسلمين من قريش يردونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده.
- 3 — أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس.
- 4 — من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فقبل عليه الصلاة والسلام كل هذه الشروط. أما المسلمون فدخلهم منها أمر عظيم وقالوا: سبحان الله كيف نرُدُّ إليهم من جاءنا مسلماً، ولا يردون من جاءهم مُرتدّاً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». Y

أما الأمر الثالث: وهو صدُّ المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً في قلوبهم، لأن الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه: وهل ذكر أنه في هذا العام؟ ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين، وكان الكاتب علي بن أبي طالب، فأملأه عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: اكتب باسمك اللهم، فأمره الرسول بذلك، ثم قال: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: لو نعم أنك رسول الله ما خالفناك، اكتب محمد بن عبد الله. فأمر عليه الصلاة والسلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله، فامتنع، فمحاها النبي بيده، وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين.

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندب بن سهيل يحجُل في قيوده، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه، فقال عليه الصلاة والسلام: «اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إننا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نخدر بهم».

هذا، وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ودخل بنو بكر في عهد قريش.

ولما انتهى الأمر، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يخلقوا رؤوسهم، وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم، فاحتمل المسلمون من ذلك همماً عظيماً، حتى إنهم لم يبادروا بالامتنال، فدخل عليه الصلاة

والسلام على أم المؤمنين، أم سلمة، وقال لها: «هالك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا»، فقالت: يا رسول الله اعذرهم، فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فإذا رأوك فعلت تبعوك، فتقدم عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره ودعا بالحلّاق فحلّق رأسه، فلما رآه المسلمون توثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا، ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وقد أمن كل فريق الآخر. ولما قرّر قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط، أخت عثمان لأمه، فطلبها المشركون فقالت: يا رسول الله إني امرأة، وإن رجعت إليهم فتنوني في ديني، فأنزل الله في سورة الممتحنة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تَمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُم مَّا أَنفَقُوا نَازِلٌ عَلَيْكُمْ وَلِلَّهِ عِلْمٌ حَكِيمٌ (10)

وقد تمكن أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي — رضي الله عنه — من الفرار إلى رسول الله، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه، فأمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع معهما، فقال: يا رسول الله أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلصني الله منهم؟ فقال: «إن الله جاعل لك وإخوانك فرجاً»، فلم يجد بداً من اتباعه، فرجع مع صاحبيه، ولما كان بذي الحليفة عدا على أحدهما فقتله، وهرب منه الآخر، فرجع إلى المدينة وقال: يا رسول الله وقتّ ذمتك، أما أنا فنجوت، فقال له: «أذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة» فذهب إلى محل بطريق الشام تمرّ به تجارة قريش، فأقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا، وسار إليه أبو جندلبن سهيل، واجتمع إليه جمع من الأعراب، وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الأمداد، فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق في إمساك من جاءه مسلماً، فقبل منهم ذلك، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما أمرهم عليه الصلاة والسلام بردّ أبي جندل، وعلموا أن رأي رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربّه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح، وقال سبحانه في أولها: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (الفتح:1) وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدّمنا لك عن الصديق.

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش، كاتب عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته، وكان نقشه: محمد رسول الله، فوجّه بحية الكلبى بكتاب إلى قيصر ملك الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك.

كتاب قيصر

وكان في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين: وقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (64)

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر، قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفيانين حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب، ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فقال أبو سفيان: أنا، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره، فقال قيصر: ادن مني، ثم أمر أصحابه فجعلوا خلف ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وقد جعلتكم خلفه كيلاً تخجلوا من ردّ كذبه عليه إذا كذب، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل تكلم بهذا القول أحدٌ منكم قبله؟ قال: لا. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال: فهل كان من آباءه من ملك؟ قال: لا. قال: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاءهم؟ قال: بل ضعفاءهم. قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا. قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا، ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا. قال: فيم يأمركم؟ قال: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة».

فقال الملك: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتي بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فقلت: لا، فلو كان من آبائه ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبين سجال، وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، فعلمت أنه نبي، وقد علمت أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتني به حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أنني أخلص إليه لتكلفت ذلك، قال أبو سفيان: فعَلتُ أصواتُ الذين عنده وكثر لَعَطُهُمْ فلا أدري ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا.

فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر

ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في نسكرة له، ثم أمر بأبوابها فأغلقت ثم قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم، قال: ردوهم عليّ، فقال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فسكنوا له، ورضوا عنه. فغلبه حُبُّ ملكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ولكنه ردّ دحية ردّاً جميلاً.

كتاب أمير بُصرى

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارثين عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بُصرى، فلما بلغ مؤتة، وهي قرية من عمل البلقاء بالشام، تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال له: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به، فضربت عنقه. ولم يُقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره، وقد وجد ذلك وجداً شديداً.

كتاب الحارثين أبي شمر

ووجه عليه الصلاة والسلام شجاعين وهب إلى أمير دمشق — من قبل هرقل — الحارثين أبي شمر، وكان يقيم بغوطتها وفيه: «بسم الله الرحمان الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارثين أبي شمر،

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله، وصدق، وإنني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك» فلما قرأ الكتاب رمى به، وقال: من ينزغ ملكي مني. واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهبيء بإيلياء ما يلزم لزيارته، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها، فلما رأى الحارثُ كتاب قيصر صرف شجاعين وهدب بالحسنى، ووصله بنفقة وكسوة.

كتاب المقوقس

ووجه عليه الصلاة والسلام حاطبين أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر، وكان فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط»، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة الممتدين الممتدين { الآية (آل عمران: 64) فأوصله له حاطب بإسكندرية، فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ألسن تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال: إنني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينها عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، وسأنظر. ثم كتب ردّ الجواب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب، وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام. وإحدى الجاريتين مارية التي تسرى بها عليه الصلاة والسلام، وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاهما لحسانين ثابت. ولم يسلم المقوقس.

كتاب النجاشي

ووجه عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام. أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته ألقاها

إلى مريم البتول الطيبة الحسنة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموااة على طاعته، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاعني، فإنني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى» ولما وصله الكتاب احترامه غاية الاحترام، وقال لعمره: إني أعلم والله أن عيسى بشرٌ به، ولكنّ أعواني بالحبشة قليل فأنظرنني حتى أكثر الأعوانَ وألين القلوب.

وقد عرض عمرو على مَنْ بقي من مهاجري الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله جحش الذي كان أسلم وهاجر بها، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتصرّ، فتزوج عليه الصلاة والسلام أم حبيبة وهي بالحبشة، والذي زوجها له النجاشي بتوكيل منه عليه الصلاة والسلام.

كتاب كسرى

ووجّه عليه الصلاة والسلام عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى، ملك الفرس، وفيه: «بسم الله الرحمان الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين، أسلم تسلّم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس» فلما وصله الكتاب مزّقه استكباراً، ولما بلغه عليه الصلاة والسلام ذلك، قال: «مزّق الله ملكه كل ممزّق» وقد فعل، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان، فأرسل لعامله باليمن أن يوجّه إلى الرسول من يأتي به إليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له، ثم أرسل لعامله في اليمن ينهاه عما أمره به أبوه.

كتاب المنذرين ساوى

ووجّه عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذرين ساوى ملك البحرين يدعوه إلى الإسلام وفيه: «بسم الله الرحمان الرحيم، سلام أنت، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبيلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول، من أحبّ ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية» فأسلم وكتب في رد الجواب: أما بعد، يا رسول الله فإنني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إليّ في ذلك أمر. فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمان الرحيم، من

محمد رسول الله إلى المنذرين ساوى، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فإني أذكرك الله عزّ وجلّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يُطع رُسُلِي، ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رُسُلِي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفّعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نَعزِلَكَ عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية».

كتاب مَلِكِي عُمَانَ

ووجّه عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص بكتاب إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُنْدِي ملكي عُمَانَ وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُنْدِي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكم بدعاية الإسلام، أسلما تسلماً، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما» فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد بن الجُنْدِي عما يأمر به الرسول وينهى عنه، فقال: يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ، وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به، ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً. قال عمرو: إن أسلم أخوك ملكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردّها على فقيرهم، فقال عبد: إن هذا لخلقٌ حسن. وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال، ولما ذكر المواشي، قال: يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه؟ قال: نعم، فقال عبد: والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا. ثم إن عبداً أوصل عمراً لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه، ومكناه من الصدقات.

كتاب هَوْدَقِينَ علي

ووجّه عليه الصلاة والسلام سَلَيْطِينَ عمرو العامري بكتاب إلى هَوْدَقِينَ علي ملك اليمامة، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هَوْدَقِينَ علي، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك» فلما جاءه الكتاب كتب في ردّه: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر

أتبعك.

ولما بلغ ذلك رسول الله قال: «لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت، بادَ وباد ما في يديه». فلم يلبث أن مات مُنصَرَفَ الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة. وكان عليه الصلاة والسلام يولي كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم.

السنة السابعة

غزوة خيبر

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه الصلاة والسلام بالتجهز لغزو يهود خيبر، الذين كانوا أعظم مُهَيِّجٍ للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق، والذين لا يزالون مجتهدين في مخالفة الأعراب ضد رسول الله كما قدمنا ذلك في قصة كعبين الأشرف. وقد استنفر رسول الله لذلك من حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية، وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً»، وأمر منادياً ينادي بذلك، ثم خرج عليه الصلاة والسلام بعد أن ولّى على المدينة سباعين عُرْفُطَةَ الغفاري. وكان معه من أزواجه أم سلمة، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي، رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ارفقوا بأنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم».

وكانت حصون خيبر ثلاثة، منفصلاً بعضها عن بعض، وهي: حصون النطاة، وحصون الكتبية، وحصون الشَّقِّ، والأولى ثلاثة: حصن ناعم، وحصن الصَّعب، وحصن قلَّة، والثانية حصنان: حصن أبي، وحصن البريء، والثالثة ثلاثة حصون: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السُّلالم، فبدأ عليه الصلاة والسلام بحصون النطاة، وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل، وأمر عليه الصلاة والسلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا، فقطع المسلمون نحو أربعمئة نخلة. ولما رأى عليه الصلاة والسلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع، ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمرامة، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع في ذلك اليوم شيئاً، وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، وصار عليه الصلاة والسلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة، ويخلف على العسكر أحد المسلمين، حتى إذا كانوا في الليلة السادسة، ظفر حارس الجيش، وهو عمر بن الخطاب، بيهودي خارج في جوف الليل، فأتى به رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولما أدرك الرجل الرعب قال: إن أمتنوني أدلكم على أمر فيه نجاحكم. فقالوا: دلنا فقد أمناك، فقال: إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشَّقِّ، وسيخرجون لقتالكم غداً، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فإنكم تنصبون المنجنيق، ويدخل

الرجال تحت الدبابات، فينقبون الحصن فتفتحه من يومك، فقال عليه الصلاة والسلام لمحمد بن مسلمة: «سأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبنا» فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها، حتى قال عمر بن الخطاب: ما تمنيت الإمارة إلا ليلتذ.

فلما كان الغد سأل عليه الصلاة والسلام عن علي بن أبي طالب فقيل له: إنه أرمد، فأرسل من يأتيه به، ولما جاء تفل في عينيه فشفاها الله كأن لم يكن بهما شيء، ثم أعطاه الراية، فتوجه مع المسلمين للقتال، وهناك وجدوا اليهود متجهزين، فخرج يهودي يطلب البراز فقتله علي، ثم خرج مرحباً، وهو أشجع القوم، فألحقه برفيقه، فخرج أخوه ياسر، فقتله الزبير بن العوام، ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقعهم، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه وهو حصن الصعب، وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر، ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب، فقاتل عنه اليهود قتالاً شديداً حتى رد عنه المسلمون، ولكن ثبت الحباب بن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا اليهود، فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه الصلاة والسلام منادياً يقول: «كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئاً».

ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حسن قلعة، فتبعهم المسلمون، وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه، وفي اليوم الرابع دلهم يهودي على جداول الماء التي يستقي منها اليهود، فمنعوها عنهم، فخرجوا، وقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشق، فتبعهم المسلمون وبدؤوا بحصن أبي، فخرج أهله، وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري بلاءً حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البريء، فتمنعوا به أشد التمتع، وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه، فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوق في قلب أهله الرعب، وهربوا منه من غير عناء شديد، فوجد فيه المسلمون أواني لليهود من نحاس وفخار، فقال عليه الصلاة والسلام: «اغسلوها واطبخوا فيها».

ثم تتبع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكتيبة، وبدؤوا بحصن القموص، فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي بن أبي طالب، ومنه سببت صفية بنت حبيبن أخطب، ثم سار المسلمون لحصار حصني الوطيح والسلايم، فلم يقاوم أهلها بل سلّموا طالبين حقن دمايتهم، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فأجابهم رسول الله إلى ذلك، وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع، وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية، ووجدوا صحفاً من التوراة فسلّموها لطالبيها.

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بقتل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق لأنه أنكر حلي حيين أخطب، وقد عثر عليها المسلمون، فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك.

هذا، والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلاً، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً، وفي هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله، فأخذ منها مضغة، ثم لفظها حيث أعلم أنها مسمومة، وأكل منها بشرين البراء فمات لوقته، واحتجج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجيء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعل، فسألها عن سبب ذلك فأجابت: قلت إن كان نبياً لن يضره، وإن كان كاذباً أراحنا الله منه، فعفا عنها عليه الصلاة والسلام.

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه الصلاة والسلام صفية بنت حيي، سيد بني النضير، وأصدقها عتقها، وقد أسلمت رضي الله عنها، فشرفت بأمومة المؤمنين.

النهي عن نكاح المتعة

ونهى عليه الصلاة والسلام — وهو بخيبر — عن نكاح المتعة، وهي: النكاح لأجل وقد كان حلالاً في الجاهلية، واستعمل في بدء الإسلام حتى حرّمه الشرع في هذه السنة، ونهى كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها.

رجوع مهاجري الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر قديم من الحبشة جعفر بن أبي طالب ومعه الأشعريون: أبو موسى وقومه، بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين، وفرح عليه الصلاة والسلام بمقدمهم فرحاً عظيماً، وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً، وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين. وقدم في هذا الوقت على النبي عليه الصلاة والسلام الدوسيون إخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم، فأعطاهم أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فتح فذاك

وبعد تمام الفتح، أرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يطلب من يهود فدك الانقياد والطاعة، فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم، ويتركوا الأموال. وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة يُنفق منها على نفسه، ويعول منها صغير بن هاشم ويزوج منها أيمهم.

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين.

فتح وادي القرى

ثم دعا عليه الصلاة والسلام يهودَ وادي القرى إلى الاستسلام فأبوا وقاتلوا، فقاتلهم المسلمون، وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً، وغنموا منهم مغانم كثيرة، خَمَسَهَا عليه الصلاة والسلام، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يُخرجون منها، وكذلك صنع بأرض خيبر، وكان يرسل إليهم عبد الله بن رواحة لتقدير الثمر، وكان تقديره شديداً عليهم، فأرادوا أن يرشوه، فقال لهم: يا أعداء الله تعطوني السُّحت؟ والله لقد جنتكم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبّي إياه على ألاّ أعدل.

هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر، مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق. ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين.

إسلام خالد ورفيقه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم: خالد بن الوليد المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي، وعثمان بن طلحة العبدي، فسُرَّ بهم عليه الصلاة والسلام سروراً عظيماً، وقال لخالد: «الحمد لله الذي هدانا لهذا، قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ ألاّ يسلمك إلاّ إلى خير» فقال: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنتُ أشهدا عليك، فقال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يقطع ما قبله».

سرية

وفي شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من هوازن بئرَبة يظهرون العداوة للمسلمين، فأرسل لهم عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً، فسار إليهم. ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً، فرجع.

سرية

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرة بناحية فدك، فلما ورد بلادهم لم يرَ منهم أحداً، فأخذ

نعمهم وانحدر إلى المدينة، أما القوم فكانوا في الوادي، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل، ولما أصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديداً حتى قُتل غالبُ المسلمين، وجرحَ بشير جرحاً شديداً حتى ظن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر.

سرية

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام غالبين عبد الله الليثي إلى أهل الميِّعة في مائة وثلاثين رجلاً، فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين، وفي أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين، ولما رأى المشرك الموت في يد أسامة تشهَّد فظن أسامة أن عدوه إنما قال ذلك تخلصاً فقتله.

ولما رجع المسلمون إلى المدينة، وأخبر رسول الله بفعله أسامة قال: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله، فكيف تصنع بلا إله إلا الله؟» قال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً من القتل، قال عليه الصلاة والسلام: «فهلأ شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟» فقال: يا رسول الله استغفر لي. قال عليه الصلاة والسلام: «فكيف بلا إله إلا الله؟» فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم، وأنزل الله في ذلك في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: 94)، ثم أمر عليه الصلاة والسلام أسامة أن يعتق رقبة كفارة لأنه قتل خطأ.

سرية

وفي شوال بلغه عليه الصلاة والسلام أن عُيينة بن حصن واعدَ جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يُمْن وجُبَار للإغارة على المدينة، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاثمائة رجل، فساروا إليهم يكمنون النهار، ويسرون الليل حتى أتوا محلتهم، فأصابوا نِعماً كثيرة، وتفرق الرِّعاء فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بغلبيا بلادهم، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما، ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة. عمرة القضاء

لما حالَ الحول على عمرة الحديبية خرج عليه الصلاة والسلام بمن صدَّ معه فيها ليقضي عمرته، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وساق معه الهدى ستين بدنةً، وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش، وكان معه مائة فرس عليها محمد بن مسلمة، وعلى السلاح بشير بن سعد، وأحرم عليه الصلاة والسلام من باب المسجد المدني، ولما انتهى إلى ذي الحليفة قدَّم الخيل أمامه، فقيل: يا رسول الله حملت السلاح، وقد شرطوا ألاَّ تحمله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ندخل الحرم به ولكن يكون قريباً منّا، فإن

هاجنا هائج فزعنا له» فلما كان بمرّ الظَّهران قابله نفرٌ من قريش، ففزعوا من هذه العدة، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم فجاءه فتيان منهم وقالوا: والله يا محمد ما عُرفت بالصدر صغيراً ولا كبيراً، وإنّا لم نحدث حدثاً فقال: «إنّا لا ندخل الحرم بالسلاح» ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت، فدخل عليه الصلاة والسلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من تنيّة كداء وأمامه عبد الله بن رواحة يقول: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. وطاف عليه الصلاة والسلام بالبيت وهو على راحلته، واستلم الحجر بمحجّته، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة لأن المشركين قالوا: سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب، فقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرءاً أراه من نفسه قوة» واضطبع عليه الصلاة والسلام بردائه، وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة، وفعل مثله المسلمون، وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه الصلاة والسلام في منامه.

زواج ميمونة

وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمز بن عبد المطلب شهيد أُحد، وخالة عبد الله بن عباس — وهي آخر نسائه زوجاً — ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان يسرف. ولما خرج عليه الصلاة والسلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حياه الله من تصديق رؤياه.

السنة الثامنة

سرية

وفي صفر أرسل عليه الصلاة والسلام غالبين عبد الله الليثي إلى بني الملوّح، وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد، فسار القوم حتى إذا كانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء، وكان خصماً لدوداً فأسروه، فقال لهم: ما جئت إلا للإسلام، فقالوا له: إن تكن مسلماً لن يضرك رباط ليلة وإلا استوتقنا منك، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوّح فاستاقوا النعم والشاء، وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به، ولكن من الله على المسلمين، فأرسل سيلاً شديداً حال بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرّون على ردّها.

سرية

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً أرسله عليه الصلاة والسلام في مائتي رجل ليقْتَصَّ من بني مرّة بفدك — وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد — فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد فإنّي أُوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأي لمن لا يُطاع. ثم أخى بين الجند، فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يفارق أحد منكم زميله، وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري، فإذا كَبُرَتْ فكَبَرُوا، فلما أحاطوا بالعدو، وكَبُرَ كَبَرُوا، وجرّدوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد، واستاقوا نَعْمَهُمْ، فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة.

سرية

وفي ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام كعبين عمير الغفاري إلى ذات أطلاح — من أرض الشام — في خمسة عشر رجلاً، فوجدوا جمعاً كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا وقاتلوا، وكانوا أكثر عدداً، فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعبين عمير فإنه نجا، وأتى بالخبر إلى رسول الله، فَشَقَّ عليه، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم، فبلغه أنهم تحوّلوا من منزلهم فعدل عن ذلك.

غزوة مُؤتة

جهّز عليه الصلاة والسلام في جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارثين عمير الأزدي، رسوله إلى أمير بُصرى، وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: «إن أُصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب فعبد الله بن راحة». وكان عدّة الجيش ثلاثة آلاف، فساروا وشيّعهم عليه الصلاة والسلام، وكان فيما وصّاهم به: «اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوّ الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً».

ولم يزلوا سائرين حتى وصلوا مؤتة مقتل الحارثين عمير، وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيماً، منهم ومن العرب المنتصرة. فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه: أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً أم يقدمون على الحرب؟ فقال عبد الله بن راحة: يا قوم والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بعدد ولا بقوة ولا بكثرة، ما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به، فإنما هي إحدى الحسينين: إما الظهور وإما الشهادة، فقال الناس: صدق والله ابن راحة. ومضوا للقتال، فلقوا هذه الجموع المتكاثرة، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول:

يا حبذا الجنّة واقترابهاطيبةً وبارد شرابها والروم روم قد دنا عذابها كفرة بعيدة أنسابها علي إذ لاقيتها

ضرائها ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد، فقال يخاطب نفسه:
أقسمت يا نفس لتتزينه طاعة أو لتكرهينها إن أجب الناس وشدوا الرننهما لي أراك تكرهين الجنة؟ قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة؟ ثم اقتحم بفرسه المعجمة، ولم يزل يقاتل — رضي الله عنه — حتى استشهد، فهم بعض المسلمين بالرجوع إلى الورا، فقال لهم عقبين عامر: يا قوم يقتل الإنسان مقبلاً خيراً من أن يقتل مدبراً، فترجعوا وانفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد، وبهيمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع، إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً؟ فإنه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديداً، وفي غده خالف ترتيب العسكر، فجعل الساقية مقدمة، والمقدمة ساقية، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا.

ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الورا حتى انحاز إلى مؤتة، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين، وخافوا أن يجرؤهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع القتال، وقد نعى النبي صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب — وكانت عينا رسول الله تدرقان — ثم قال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم» وجاءه رجل فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر يبكين، فأمره أن ينهأهن، فذهب الرجل ثم أتى فقالت: قد نهيتهن فلم يطعن، فأمره فذهب ثانياً، ثم جاء فقال: والله لقد غلبنا، فقال له عليه الصلاة والسلام: «احث في أفواههن التراب».

ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم: يا فرار، فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هم الكرار». ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراهم أن ذلك من مكاييد الحرب، وأثنى على خالد في مهارته.

سرية

وفي جمادى الآخرة بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من قضاة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة، فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين والأنصار، ثم أمده بأبي عبيدقن الجراح في مائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، فلحقوا عمراً قبل أن يصل إلى القوم، وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو، فأنكر عليه عمر بن الخطاب، فقال أبو بكر: إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفة بالحرب أكثر منا فلا تعصه، فامتثل.

ولما حلُّوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين، فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين، وبينما هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة، فلما أصبح قال: إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول: وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ { (البقرة: 195) ثم تيمم وصلى، ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا إلى المدينة قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته، فأخبروه بما نغموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار، ونهيهم عن اتباع العدو، وصلاته جنبا، فسأله عليه الصلاة والسلام عن ذلك، فقال: منعهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قتلهم فيطمع فيهم، ونهيهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين، وصليت جنبا لأن الله يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة: 195) وإن أنا اغتسلت هلكت، فتبسم عليه الصلاة والسلام وأثنى على عمرو خيرا.

سرية

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام أبا عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة التي تسكن ساحل البحر، وزود عليه الصلاة والسلام هذا الجيش جراباً من التمر، فساروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو، وقد فني زادهم حتى أكلوا الخبث، وهو ورق السم، يبلونه بالماء ويأكلونه إلى أن تقرحت أشداقهم، وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور. وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة، لأن قيساً كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه، فخاف أبو عبيدة ألا يفني له أبوه بما استدان، فقال قيس: أترى سعداً يقضي ديون الناس، ويطعم في المجاعة، ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟ ولما يسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة، فقال قيس بن سعد لأبيه: كنت في الجيش فجاعوا، فقال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نهيت. X

غزوة الفتح الأعظم

إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه وأزال موانعه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذلل العرب حتى تذلل قريش، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة، فكان يتشوف لفتحها، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التي أعطاها قريشاً في الحديبية وهو سيد من وقى. ولكن إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه، فقد علمت أن قبيلة خزاعة دخلت

في عهد رسول الله، وقبيلة بني بكر دخلت في عهد قريش، وكان بين خزاعة وبني بكر دماء في الجاهلية كمنت نارها بظهور الإسلام، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بني بكر يتعنى بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعي، فقام هذا وضربه، فحرك ذلك كامن الأحقاد، وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم، واستعانوا بأوليائهم من قريش، فأعانوهم سرّاً بالعدة والرجال، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين، ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش، فلما حلوا بين يديه، وأخبروه، قال: «والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه».

أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا، وأرادوا مداواة هذا الجرح، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان حرب إلى المدينة ليشدّ العقد، ويزيد في المدة، فركب راحلته، وهو يظن أنه لم يسبقه أحد، حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال: يا بنيّة أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت: ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فقال: لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج من عندها، وأتى النبي في المسجد، وعرض عليه ما جاء له، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هل كان من حدّث؟» قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: «فنحن على مدتنا وصلحنا». ولم يزد عن ذلك. فقام أبو سفيان، ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش لعلهم يساعدونه على مقصده، فلم يجد منهم مُعيناً، وكلهم قالوا: جوارنا في جوار رسول الله، فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً، فاتهموه بأنه خانهم وأتبع الإسلام، فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجهز للسفر، وأمر أصحابه بذلك، وأخبر الصديق بالوجهة، فقال له: يا رسول الله أوّ ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: «نعم، ولكن غدروا ونقضوا». ثم استنفر عليه الصلاة والسلام الأعراب الذين حول المدينة، وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة». فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجُهينة، وطوى عليه الصلاة والسلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر، فتعلم قريش فتستعد للحرب، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يُقيم حرباً بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحُرمتها، فدعا مولاة جلّ ذكره وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدرًا، وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جُعل، فأعلم الله رسوله ذلك، فأرسل في أثرها عليّاً والزبير والمقداد وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةً خاخ، فإن بها طعينة

معها كتاب فخذوه منها». فانطلقوا حتى أتوا الروضة، فوجدوا بها المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب فقالوا: لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عاصيها، فأتوا به رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا حاطب ما هذا؟» قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه قد صدقكم». فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وفي ذلك أنزل

الله في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1)

ثم سار عليه الصلاة والسلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولّى على المدينة ابن أم مكتوم، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما: ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة شقيق زوجته أم سلمة، وكانا يريدان الإسلام، فقبلهما عليه الصلاة والسلام، وفرح بهما شديد الفرح، وقال: لا تتريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين { (يوسف: 92). ولما وصل عليه الصلاة والسلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين، فأمرهم بالفطر، وأفطر هو أيضاً، وقد قابل عليه الصلاة والسلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله، فأمره أن يعود معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة.

ولما وصل عليه الصلاة والسلام مرّ الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار، وكانت قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكانها نيران عرفة فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله، فأسلم أبو سفيان،

فلما سار قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند خَطْمِ الجبل حتى ينظر إلى المسلمين»، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمرّ كتيبةً كتيبةً على أبي سفيان وهو يسأل عنها ويقول: ما لي ولها، حتى إذا مرّت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعدين عبادة فقال سعد: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يومُ الذُّمار. ثم جاءت كتيبة وهي أقلُّ الكتائب فيها رسول الله وأصحابه، وحامل الراية الزبيرين العوام، فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد. فقال عليه الصلاة والسلام: «كذب سعد، ولكن هذا يوم يُعظَّمُ الله فيه الكعبة ويوم تُكسى فيه الكعبة». ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن تركز رايته بالْحَجُون، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كُدَى، ودخل هو من أعلاها من كَدَاء ونادى مناديه: «مَنْ دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وهذه أعظم منة له، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم، وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى، فأهدر دمهم — وإن تعلقوا بأستار الكعبة — منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي أسلم، وكتب لرسول الله الوحي، ثم ارتدّ، وافتري الكذب على الأمين المأمون، فكان يقول: إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم، فيقول كل جيد ومنهم عكرمة بن

أبي جهل وصفوان بن أمية، وهبار بن الأسود، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية، وكعب بن زهير، ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وقليل غيرهم، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل، فأما جيش خالد بن الوليد فقابلته الذُّعرُ من قريش يريدون صدّه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، وقُتل من جيشه اثنان، ودخلها عتوة من هذه الجهة، وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف مانعاً وهو عليه الصلاة والسلام راكب راحلته منحنٍ على الرّحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تَمَسُّ الرّحْل، وأسامة بن زيد رديفه، وكان ذلك صباح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل الحجون موضع رايته، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة، فاستراح قليلاً ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى بلغ البيت، وطاف سبعاً على راحلته، واستلم الحجر بمحجته، وكان حول الكعبة إذا ذاك ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ وما يُبْدِئُ الباطلُ وما يُعيدُ» ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزام، فقال عليه الصلاة والسلام: «قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط». وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة. وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأنداس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً. ويوشك أن نذكر للقارىء اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية.

العفو عند المقدرة

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة وكبَّر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد، والناس حوله، والعيون شاخصة إليه، ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده وقتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، أن يكون رضاء وغضبه لله لا لهوى النفس، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه الصلاة والسلام: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ويرحم الله الإمام البوصيري حيث قال:

وإذا كان القطع والوصل للهتساوى التقريب والإقصاء ولو أن انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعةً وجفاءً قام الله في الأمور فأرضى اللهم تبايناً ووفاءً فعله كله جميل وهل ينضح إلا بما حواه الإناء؟ ثم خطب عليه الصلاة والسلام خطبةً أبان فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية، منها: ألا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تتكح المرأة على عمتها أو خالتها، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد الصبح والعصر، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر، ثم قال: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعْظُمَهَا بِالْأَبَاءِ، والناس من آدم، وادم من تراب، ثم تلا هذه الآية: لِيَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقَّت عليه كلمة العذاب فقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فعبد اللهين سعد بن أبي سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان، وطلب منه أن يستأمن له رسول الله، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس، ثم أتى به وقال: يا رسول الله قد أمنت به فبايعه، فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام مراراً ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه الصلاة والسلام: «أعرضتُ عنه ليقومَ إليه أحدكم فيضرب عنقه»، فقالوا: هلاً أشرتَ إلينا؟ فقال: «لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

وأما عكرمة بن أبي جهل فهرب، فخرجت وراءه زوجته وبنيتُ عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت يوم الفتح، وقد أخذت له أماناً من رسول الله فلحقته، وقد أراد أن يركب البحر، فقالت: جئتُك من عند أبرّ الناس، وخيرهم، لا تهلك نفسك، وإني قد استأمنتُ لك فرجع، ولما رآه عليه الصلاة والسلام وثب قائماً فرحاً به، وقال: «مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً» ثم أسلم رضي الله عنه، وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغبرهم على الإسلام.

وأما هبَّارين الأسود فهرب، واختفى، حتى إذا كان رسول الله بالجِعْرَانَة جاءه مسلماً، وقال: يا رسول الله هربتُ منك وأردتُ للحاق بالأعاجم ثم ذكرتُ عائدتك وصلتك وصفحك عمّن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد عفوتُ عنك».

وأما الحارثين هشام، وزهيرين أبي أمية المخزومي، فأجارتهما أم هانئ بنت أبي طالب، فأجاز عليه الصلاة والسلام جوارها، ولما قابل رسولُ الله الحارثين هشام مسلماً قال له: «الحمد لله الذي هدانا لهذا ما كنا مثلكَ يجهل الإسلام» وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

وأما صفوانبن أمية فاخترى وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر، فجاء ابن عمه عُميربن وهب الجُمحي وقال: يا نبي الله إن صفوانَ سيد قومه، هرب ليقذف نفسه في البحر فأمَّنهُ فإنك قد أمَّنت الأحرر والأسود، فقال عليه الصلاة والسلام: «أدرك ابن عمك فهو آمن» فقال: أعطني علامة، فأعطاه عِمَامته، فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان، قال له: فذاك أبي وأمي، جنَّتك من عند أفضل الناس، وأبرَّ الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وهو ابن عمك، وعزُّه عزُّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إنني أخاف على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامة الأمان، فرجع إلى رسول الله، وقال له: إن هذا يزعم أنك أمَّنتني؟ قال: «صدق» قال: أمهلني بالخيار فيه شهرين، قال: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر» ثم أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه.

وأما هند بنت عتبة فاخترت ثم أسلمت، وجاءت إلى رسول الله فرحبَ بها وقالت له: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحبَّ إليَّ أن ينلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحبَّ إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك.

وفود كعبين زهير

وأما كعبين زهير فلما ضاقت به الأرض، ولم يجد له مجيراً، جاء المدينة بعد أن قدمها رسولُ الله من مكة فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

وقال كلُّ صديق كنتُ أملهلاً ألهيَّكَ إني عنك مشغولُفقلتُ: خلُّوا سبيلي لا أبا لكمفكلُّ ما قدَّرَ الرحمنُ مفعولُكلُّ ابن أنتي وإن طالَّتْ سلامتُهُيوماً على آلةٍ حدياءٍ محمولُنُبئتُ أن رسولَ الله أو عديو العفو عند رسولِ الله مأمولُمهلاً هداك الذي أعطاك نافلةَ القرآن فيها مواعيطُ وتفصيلُ وقال فيها مادحاً:
إنَّ الرسولَ لسيفٌ يُستضاءُ بهمُهنتُ من سيوفِ الله مسلولُ ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسولُ بردته.

وأما وحشي قاتل حمزة فكذاك أسلم، وحسن إسلامه، وقبله عليه الصلاة والسلام، وقد جاءه ابنا أبي لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه الصلاة والسلام.

وكان من الذين اختفوا سهيلين عمرو، فاستأمن له ابنه عبد الله فأمنه عليه الصلاة والسلام، وقال: «إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام». فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال: كان والله برّاً صغيراً، برّاً كبيراً، ثم أسلم بعد ذلك.

بيعة النساء

هذا، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء، وكنّ يبايعن على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين بيهتان يفتريه بين أيديهنّ وأرجلهنّ، ولا يعصين الرسول في معروف. ثم أمر عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يؤذّن على ظهر الكعبة، وهذا بدء ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم، فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حقّ حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولى عليها عتاب بن أسيد، وجعل رزقه كل يوم درهماً، فكان عتاب رضي الله عنه يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كلاً يوم.

هدم العزرى

وفي الخامس من مقامه عليه الصلاة والسلام بمكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزرى — وهي أكبر صنم لقريش، وكان هيكلها بيطن نخلة — فتوجه إليها خالد وهدمها.

هدم سواع

وأرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص لهدم سواع — وهو أعظم صنم لهذيل — وهيكله على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

هدم مناة

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة. وهيكلها بالمشلل، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد. فتوجهوا إليها وهدموها.

غزوة حنين

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان، دانت للإسلام جموعُ العرب ودخلوا فيه أفواجاً. أما قبيلتنا هوازن وتقيف فأدركتهما حميةُ الجاهلية، واجتمع الأشرافُ منهم للشورى، وقالوا: قد فرغَ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا، فلنغزُهُ قبل أن يغزونا. فأجمعوا أمرهم على ذلك، وولّوا رياستهم مالكبن عوف النَّصْرِي، فاجتمع له من القبائل جموعٌ كثيرة، فيهم بنو سعدبن بكر، الذي كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وكان في القوم دُرَيْدبن الصَّمَّة المشهور بأصالة الرأي، وشدة البأس في الحرب، ولتقدم سنه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي، ثم إن مالكبن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، فلما علم ذلك دُرَيْد سأل مالكا عن السبب، فقال: سقتُ مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم، فقال دريد: وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفك إلا رجل بسيفه ورُمحه، وإن كانت عليك فُصِحت في أهلك ومالك، فلم يقبل مالك مشورته، وجعل النساءَ صفوفاً وراء المقاتلة، ووراءهم الإبل، ثم البقر، ثم الغنم، كيلا يفر أحد من المقاتلين.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لما بلغه أن هوازن وتقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غاز، منهم ألفان من أهل مكة، والباقيون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوانبن أمية، وسُهَيْلبن عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو صفّ عليه الصلاة والسلام الغزاة، وعقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعليين أبي طالب، ولواء الخزرج للحباببن المنذر، ولواء الأوس لأسيدين حضير، وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى. ثم ركب عليه الصلاة والسلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر.

هذا، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغن عنهم شيئاً، فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه، وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فلوا أعنة خيلهم متقهقرين، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته في ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار، منهم: أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيانين الحارث وأخوه ربيعةبن الحارث ومعتبين أبي لهب، وكان العباس أخذاً بلجام البغلة، وأبو سفيان أخذاً بالركاب، وكان عليه الصلاة والسلام ينادي: «إلي أيها الناس» ولا يلوي عليه أحد، وضافت بالمنهزمين الأرض بما رحبت. أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربةً الشرك فمنهم من فرح، ومنهم من ساءه هذا الإدبار، فقال أبو سفيانين حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال أخ لصفوانبن أمية: الآن بطل السحر. فقال له صفوان — وهو على شركه —: اسكت فضَّ الله فاك، والله لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن. ومرَّ عليه رجل من قريش وهو يقول: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً،

فغضب صفوانُ وقال: ويلك أتبشرنى بظهور الأعراب؟ وقال عكرمة بن أبي جهل لذاك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أُدبِل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً، فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء، وعقولنا ذاهبة، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع. H. وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة، كل هذا ورسول واقف مكانه يقول:

أنا النبيُّ لا كذِبَانَا ابنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثم قال للعباس: — وكان جَهْوَرِيَّ الصوت — «نادِ بالأنصار يا عباس» فنادى: يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان فأسمع مَنْ في الوادي، وصار الأنصار يقولون: لَنِيكَ لَنِيكَ، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عِنانَ بعييره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين. فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه، وينزل عن بعييره، ويخلي سبيله، ويؤمُّ الصوتَ حتى اجتمع حولَ رسول الله جمع عظيم منهم. وأنزل الله سكينته على رسوله، وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها، فكرَّ المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكثقت فتل المشركين. وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيراً من المحاربيين، وهرب من هرب، وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحاتٍ بالغة، وأسلم ناس كثير من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

هذا، والذي حصل في هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب، فإن هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحديثي عهد بالإسلام، هؤلاء سيَّانَ عندهم نصرُ الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله، فلا ينبغي أن يكون في الجيش إلا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه، فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية مما أعدّه الله للفارين من أليم العقاب.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بجمع السبي والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بغير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، فجمع ذلك كله بالجعرانة. أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس.

سرية

فأرسل عليه الصلاة والسلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعري في جماعة منهم أبو موسى الأشعري، فسار إليهم وبددهم وظفر بما بقي معهم من الغنائم. وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة وخلف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى، فرجع ظافراً منصوراً.

غزوة الطائف

وسار عليه الصلاة والسلام بمن معه إلى الطائف ليجوز على بقية حياة تقيف ومن تجمع معهم من هوازن، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد، ومرّ عليه الصلاة والسلام بحصن لمالكن عوف النَّصري فأمر يهدمه. ومرّ ببستان لرجل من تقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه أن اخرج وإلا حرّقنا عليك بستانك، فامتنع الرجل فأمر عليه الصلاة والسلام بحرقه. ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم، فعسكر المسلمون قريب الحصن. فرماهم المشركون بالنبل رمية شديداً حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبد الله بن أبي بكر، وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه، ومنهم أبو سفيان بن حرب فقتل عينه. وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين. ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن، وضرب لأُمّ سلمة وزينب قيتين هناك، واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً، كان فيها يُنادي خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد، وناداه عبد ياليل ——— عظيم تقيف ——— لا ينزل إليك منّا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقيمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسياقنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يُنصب عليهم المنجنيق فنصب. ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم تقيف سيك الحديد مُحماة بالنار حتى أرجعهم. فأمر عليه الصلاة والسلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم، فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً، فناداه أهل الحصن، أن دعها لله وللرحم، فقال: «أدعها لله

واللرحم» ثم أمر من ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً. ولما رأى عليه الصلاة والسلام أن تمنع تقيف شديداً، وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب أو المقام، فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقيمت أخذته، وإن تركته لم يضرّك. فأمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على تقيف، فقال: «اللهم اهد تقيفاً وائت بهم مسلمين».

تقسيم السبي

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى الجِعْرَانَةِ حيث ترك السبي فأحصاه، وخمسه، وأعطى منه شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك. وأعطى أناساً لم يسلموا ليُحَبَّبَ إليهم الإسلام، ومن الأولين: أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل، وكذلك ابناه معاوية ويزيد، فقال له: بأبي أنت وأمي لأنت كريم في السلم والحرب. ومنهم حكيمبن حزام أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه، ثم استزاده فأعطاه مثلها، وقال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليدُ العليا خير من اليد السفلى» فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه. وأعطى عليه الصلاة والسلام عِيْنَتَيْنِ حصن مائة من الإبل، وكذلك الأقرعبن حابس، والعباسبن مرداس، وأعطى صفوانبن أمية شِعْباً مملوءاً نَعْمًا وشاءَ كان رآه يرمقه، فقال له: «هل يعجبك هذا؟» قال: نعم، قال: «هُوَ لك» فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفسُ أحد، وكان سبب إسلامه. وكان عليه الصلاة والسلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم، وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسماً للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظيمة، فإن كثيرين ممن أعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا أشربوا في قلوبهم حُبَّ الإسلام صاروا بعدُ من أجلاء المسلمين، وأعظمهم نفعاً، كصفوانبن أمية، ومعاويةبن أبي سفيان، والحارثبن هشام وغيرهم.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام زيدبن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد أن اجتمع إليه الأعراب، وصاروا يقولون له: اقسام علينا، حتى ألجؤوه إلى شجرة، فتعلق رداؤه، فقال: «ردوا رداي أيها الناس، فوالله إن كان لي شجر تهامة نَعْمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً» ثم قام إلى بعيده، وأخذ ويرةً من سَنَامِهِ، وقال: «أيها الناس والله ما لي من غنيمتكم ولا هذه الويرة إلا الخمس، والخمسُ مردود عليكم، فأدوا الخياطَ والمخيطَ، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة» فصار كل من أخذ شيئاً من الغنائم خلسة يردُّه ولو كان زهيداً، ثم شرع يقسم فأصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعون شاة، والفرس ثلاثة أمثال ذلك، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله، فغضب عليه الصلاة والسلام حتى احمرَّ وجهه، وقال: «ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟» فلم يؤده غضبه أن ينتقم لنفسه، حاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، بل لم يزد على أن نصح وحذر، وقال له عمر وخالدين الوليد: دعنا يا رسول الله نضرب عنقه، فقال: «لا لعله أن يكون يُصلي» فقال خالد: وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال صلى الله عليه وسلم: «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق عن بطونهم».

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب، وترك الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب يُعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطرُ من دمائهم فبلغه ذلك، فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم. فلما اجتمعوا قال: «يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألفَ الله بين قلوبكم بي؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة، وإنني أردتُ أن أخبرهم وأتألفهم، أغضبتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألفتُ به قوماً ليسلّموا، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يُزلزل؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ فولذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار». فبكى القوم حتى اخضلتَ لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرفَ عليه الصلاة والسلام وتفرقوا.

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه صلى الله عليه وسلم وفد هوازن يرأسهم زهير بن سرد وقالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات، وهنّ مخازي الأقوم، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله وقال زهير: إن في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها:

امننّ علينا رسول الله في كرمفانك المرء نرجوه وننتظرُ امننّ على نسوة كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من مخصيها الدررُ لنا لنشكر للنعماء إن كفرتو عندنا بعد هذا اليوم مدخرنا نؤمل عفواً منك نلبسههدى البرية أن تعفو وتتنصر فألبس العفو من قد كنت ترضعهم أمهاتك إن العفو مشتهر فقال صلى الله عليه وسلم: «إن أحبّ الحديث إليّ أصدقُهُ، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال. وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون». فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، أرددُ علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبّ إلينا ولا نتكلم في شارة ولا بعير، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما ما لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت الظهر فقوموا، وقولوا: نحن نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله بعد أن تظهروا إسلامكم، وتقولوا: نحن إخوانكم في الدين» ففعلوا. فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أما بعد: فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإنني قد رأيتُ أن أردّ عليهم سبيهم، فمن أحبّ أن يُطيبَ بذلك فليفعل، ومن أحبّ منكم أن يكون على حظّه حتى نعطيّه إياه من أول ما يُفيءُ الله علينا فليفعل»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب، كالأقرعين حابس، وعيينة بن حصن، والعباسين مرداس، فأخذ الرسولُ منهم قرصاً، وأمر صلى الله عليه وسلم بأن تُحبسَ عائلة مالك بن عوف النصرى رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد اللهبن أمية. فقال له الوفد: أولئك ساداتنا، فقال

صلى الله عليه وسلم: «إنما أريد بهم الخير» ثم سأل عن مالك فقالوا: هرب مع ثقيف، فقال: «أخبروه أنه إن جاءني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل» فلما بلغ ذلك مالكا نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة، فأسلم وأحرز ماله، واستعمله عليه الصلاة والسلام على من أسلم من

هوازن.

عمرة الجعرانة

ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمر فأحرم من الجعرانة، ودخل مكة بليل، فطاف، واستلم الحجر، ثم رجع من ليلته، وكانت إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل، فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة.

وغزوة حنين هي التي فرق الله بها جموع الشرك، وأدال دولته، وأفقد سراً أهله، فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكنه الحرب إلا ساقته، ولم تترك لها بعيراً ولا شاة إلا جاءت به معها، فأراد الله إعزاز الإسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم، فانكسرت حدة المشركين، ولم يبق فيهم من يمانع أو يدافع، ولذلك يمكننا أن نقول: إن انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب، فلم يبق فيهم إلا فئات قليلة يسوقهم الطيش إلى شهر السلاح، ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة.

سرية

ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أرسل قيسبن سعد في أربعمئة ليدعو صُداء — قبيلة تسكن اليمن — إلى الإسلام، فجاء إلى رسول الله رجل منهم، فقال: يا رسول الله إني جئتكَ وافداً عمّن ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فأمر عليه الصلاة والسلام بردّ الجيش.

وفود صُداء

وخرج الرجل إلى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم، فنزلوا ضيوفاً على سعدبن عباد، ثم بايعوا رسول الله على الإسلام، وقالوا: نحن لك على من وراينا من قومنا، ولما رجعوا فثنا فيهم الإسلام، وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع.

سرية

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام بشرين سفيان العدوي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم، فمَنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فُرِضَ عليهم، فلما علم بذلك رسول الله أرسل إليهم عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب، فجاءهم وحاربهم، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صبياً، وتوجه بالكل إلى المدينة، فأمر عليه الصلاة والسلام بجعلهم في دار رَمَلَةَ بنت الحارث.

وفود تميم

فجاء في أثرهم وفد تميم، وفيه عطاردين حاجب، والزبيرقانبين بدر، وعمروبن الأهتم، فجلسوا ينتظرون الرسول، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جَافٍ: يا محمد اخرج إلينا نفاخرك، فإن مدحنا زَيْنَ، وإن ذمنا شَيْنَ، فخرج إليهم عليه الصلاة والسلام، وقد تأذى من صياحهم، وفيهم نزل في أوائل سورة الحجرات: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

سرية

ثم بعث عليه الصلاة والسلام الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْطٍ لأخذ صدقات بني المصطلق، فلما علموا بقدمه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدمه ومعهم إبل الصدقة، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية، فرجع مسرعاً إلى المدينة، وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة، فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر، فسار إليهم في عسكره خفية حتى إذا كان بناديبهم سمع مؤذنتهم يؤذّن بالصبح، فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعة، فرجع وأخبر الرسول، فأرسل عليه الصلاة والسلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات، وفي الوليد نزل في أوائل الحجرات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ بُنِيَاءٌ فَتَيَبُّوا أَمْ تَصِيبُوا قَوْمًا بَجَاهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

سرية

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً من الحبشة رآهم أهل جُدَّةَ في مراكبهم يريدون الإغارة عليها، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزَّرٍ في ثلاثمائة، فذهب حتى وصل جُدَّةَ، ونزل في المراكب ليدركهم، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا، ولم يلقَ المسلمون كيداً، فرجع علقمة بمن معه. ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا، وأمر عليهم عبد الله بن خُذَافَةَ السَّهْمِي، وكان فيه دعابة، فأوقد لهم في الطريق ناراً، وقال لهم: ألسنتم مأمورين بطاعتي؟ قالوا: نعم، قال: عزمت عليكم إلا ما تواتبتم في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار، وهمَّ بذلك بعضهم، فمَنعهم عبد

الله، وقال: كنت مازحاً. فلما ذكروا ذلك لرسول الله، قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

السنة التاسعة

سرية

في ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام عليين أبي طالب في مائة راكب وخمسين فارساً لهدم الفلُس — صنم لطييء — فسار إليه وهدمه وأحرقه، ولما حارب عبّاده هزمهم واستاق نَعْمهم وشاءهم وسبيهم، وكان فيه سفانة بنت حاتم طيء. ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمنّ عليها، فأجابها لأنه كان من سنته صلى الله عليه وسلم أن يكرم الكرام، فدعت له، وكان من دعائها: شكرتُك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردّها عليه. وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عديين حاتم الطائي الذي كان فرّاً إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان من حديث محيئه أن أخته توجهت إليه بالشام، وأخبرته بما عُوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت أنت. قال: والله هذا هو الرأي.

وفود عديين حاتم

فخرج حتى جاء المدينة، ولقي رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «من الرجل؟» قال: عديين حاتم، فأخذه إلى بيته، وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز، فاستوقفتها، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك. ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقَدَمها إلى عدي، وقال: «اجلس على هذه». فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع عليه الصلاة والسلام وأعطاهما له، وجلس هو على الأرض، ثم قال: «يا عدي أسلم، تسلّم» قالها ثلاثاً، فقال عدي: إني على دين، وكان نصرانياً. فقال له عليه الصلاة والسلام: «أنا أعلم بدينك منك» فقال عدي: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم». ثم عدّد له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء، كأخذه الرباع وهو ربع الغنائم. ثم قال: «يا عدي إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله ليؤشكنّ المال أن يفيض فيهم

حتى لا يُوجد مَنْ يأخذه، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة؟» قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فوالله ليتمنّى هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم». فأسلم عدي رضي الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك.

غزوة تبوك

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك في زمن عُسرة الناس، وجدب البلاد، وشدة الحرّ حين طابت الثمار، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتجهز، وكان قلماً يخرج في غزوة إلا ورى غيرها، ليُعَمِّي الأخبار على العدو إلا في هذه الغزوة، فإنه أخبر بمقصده لبُعد الشقّة ولشدة العدو، ليأخذ الناس عدتّهم لذلك، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك، وحثّ الموسرين على تجهيز المعسرّين، فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بغير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرساً، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارضَ عن عثمان فإني راضٍ عنه». وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، وجاء العباس وطلحة بمال كثير. وتصدّق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حيلهن، وجاءه صلى الله عليه وسلم سبعة أنفس من فقراء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. فجهز عثمان ثلاثة منهم، وجهز العباسُ اثنين، وجهز يامين بن عمرو اثنين.

ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفاً، وولّى على المدينة محمد بن مسلمة، وعلى أهله علي بن أبي طالب، وتخلّف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أبيّ، وقال: يغزو محمد بن الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد أبحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه للعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال. واجتمع جماعة منهم، فقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الإرجاف، فبلغه ذلك، فأرسل إليهم عمّار بن ياسر يسألهم عمّا قالوا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب. وجاء إليه جماعة منهم الجدي بن قيس يعتذرون عن الخروج، فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا ولا تقتنأ لأننا لا نأمن من نساء بني الأصفر، وجاء إليه المعزّون من الأعراب — وهم أصحاب الأعداء من ضعف

أَوْ قَلَّةٌ ——— لِيُؤْذَنَ لَهُمْ فَأُذِنَ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ اسْتَأْذَنَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَأُذِنَ لَهُمْ، وَقَدْ عَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْإِذْنَ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَآكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خِلَالَكُمْ بِيَعُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)

ع ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة، وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستان، قد رشت كل منهما عريشها، وبردت فيها ماء، وهيات طعاماً، وكان يوماً شديداً الحر، فلما نظر ذلك قال: يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيباً وامرأة حسناء ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أدخل عريشاً واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيناً لي زاداً ففعلنا، ثم ركب بعيره، وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك.

وفود صاحب أيلة

هذا ولم ير صلى الله عليه وسلم بتبوك جيشاً كما كان قد سمع، فأقام هناك أياماً جاءه في اثنتائها يُحَنِّة، صاحب أيلة، وصحبته أهل جرباء، وأهل أذرح، وأهل مقنا، فصالح يُحَنِّة رسول الله على إعطاء الجزية، ولم يسلم. وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته:

كتاب صاحب أيلة

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنن روية وأهل أيلة: سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر».

كتاب أهل أذرح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيلاً بالنصح والإحسان للمسلمين».

وصالح أهل مقنا على ربع ثمارها.

ثم إن الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام، فقال له عمر: إن كنت أمرت بالسير فسير. فقال عليه الصلاة والسلام: «لو كنت أمرت بالسير لم أستشير». فقال: يا رسول الله إن للروم جمعاً كثيراً، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفرعهم دنوك، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً، فتبع عليه الصلاة والسلام مشورته، وأمر بالقول فرجع الجيش إلى المدينة.

مسجد الضَّرار

ولما كان على مقربة منها، بلغه خبر مسجد الضَّرار وهو مسجد أسَّسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قُباء، ليفرقوا جماعة المسلمين. وجاء جماعة منهم إلى الرسول طالبين منه أن يصليَّ لهم فيه، فسألهم عن سبب بنائه، فحلفوا بالله إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه لينطلقوا إليه، ويهدموه، ففعلوا. هذا، ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً، فقبل منهم عليه الصلاة والسلام علانيتهم، ووكل ضمائرهم إلى الله، واستغفر لهم.

حديث الثلاثة الذين خُلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجي، ومُرارقين الربيع، وهلالبن أمية الأوسيان مقرَّين بذنوبهم، فلما دخل عليه كعب تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الغَضَب، وقال: «ما خلَّفك؟» فقال: يا رسول الله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُوتيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتُك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكنَّ الله أن يسخط عليَّ فيه، ولئن حدَّثتُك حديث صدق تغضب عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر. فقال عليه الصلاة والسلام: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». وقال صاحبه مثل قوله، فقال لهما عليه الصلاة والسلام كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم، فاجتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، واستأذنت زوجُ هلالبن أمية في خدمة زوجها لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها، ولم يزلوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى، فنلقاهم الناس أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله. فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً، فقال: «أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك»، فقال: من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله». فقال كعب: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ولرسوله،

فقال عليه الصلاة والسلام: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». ثم قرأ عليه الصلاة والسلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحبه في سورة براءة: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

وفود تقيف

وعقب مقدمه عليه الصلاة والسلام من تبوك وفد عليه وفد تقيف، وكان من خبرهم، أنه لما انصرف رسول الله من محاصرته، تبع أثره عروقتين مسعود التقيفي حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، فقال له: «إنهم قاتلوك». فقال: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبقارهم، فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم، لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً، فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه، وبعد شهر من مقتله انتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلمه، وطلبوا من عبد ياليلين عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً، فبعثوا معه خمسة من أشرفهم، فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلّوا. وكانوا يحدّون إلى رسول الله كل يوم ويخلفون في رحالهم أصغرهم سنّاً عثمان بن أبي العاص. فكان إذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن، وهو يكتّم ذلك عن أصحابه، ثم أسلم القوم، وطلبوا أن يُعيّن لهم من يؤمّمهم، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين.

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته: «بسم الله الرحمان الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عضاه ورج وصيده حرام، لا يُعضدُ شجره، ومن وُجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه». ثم سألوا رسول الله أن يؤجّل هدم صنمهم شهراً حتى يدخل الإسلام في قلوب القوم، ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه، فرضي بذلك عليه الصلاة والسلام، ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم: أنا أعلمكم بتقيف، اكنموا عنهم إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبينها عليه. سألتنا أن نهدم الطاغية، وأن نترك الزنا، وشرب الخمر والربا، فلما حلّوا بلادهم جاءتهم تقيف، فقال الوفد: جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان الناس له، فعرض علينا أموراً شديدة، وذكرنا ما تقدم.

فقالوا: والله لا نطيعه أبداً، فقالوا لهم: أصلحوا سلاحكم، ورموا حصونكم، واستعدوا للقتال، فأجابوا، واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فقالوا: والله ما لنا بحربه من طاقة، ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا لم كتمتم علينا ذلك؟ قالوا: حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا.

هدم اللات

ولما بلغ رسول الله إسلام تقيف أرسل أبا سفيان، والمغيرة بن شعبة الثقفي، لهدم اللات: صنم تقيف بالطائف، فتوجهوا وهدموه حتى سوّوه بالأرض.

حج أبي بكر

وفي أخريات ذي القعدة، أرسل عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحج بالناس، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، ومعه الهدى: عشرون بدنة أهداها رسول الله، وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة، فأرسل بها علياً ليلبغها الناس في يوم الحج الأكبر، وقال: «لا يبلغني إلا رجل مني» فلحق أبا بكر في الطريق، فقال الصديق: هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ أو أتلو «براءة» على الناس. فلما اجتمعوا بمنى، يوم النحر، قرأ عليهم علي ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة، تتضمن نذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم، وإمهالهم أربعة أشهر يسبحون فيها في الأرض كيف شاؤوا، وإتمام عهد المشركين الذين لم يُظاهروا على المسلمين، ولم يغدروا بهم إلى مدنتهم، ثم نادى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما.

وفاة ابن أبي

وفي ذي القعدة مات عبد الله بن أبي، وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم يطل مثلها، وشيع جنازته حتى وقف على قبره، وإنما فعل ذلك تطيباً لقلب ولده عبد الله بن أبي، وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله بن أبي فيهم، وقد نزع ربة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم، لما رأوه من أعمال السيد الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد نهى الله رسوله عن الصلاة على المنافقين، فقال جل شأنه في سورة براءة: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ { (التوبة: 84).

وفاة أم كلثوم

وفي هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما.

السنة العاشرة

سرية

في ربيع الآخر أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد المدان بنجران من أرض اليمن، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ويقولون: أسلموا، تسلموا، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن، وكتب إلى رسول الله بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم ففعل. وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم: «بِمَ كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم في الجاهلية؟» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «صدقتم» وأمر عليهم زيد بن حصين.

سرية

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام علياً في جمع إلى بني مذحج — قبيلة يمانية — وعمه بيده، وقال: «سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله، فإن قالوا: نعم، فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك» فلما انتهى إليهم لقي جموعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل فصفاً علي أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا، وبايعه رؤسائهم، وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله، ففعل. ثم رجع إلى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع.

بعث العمال إلى اليمن

ثم بعث عليه الصلاة والسلام إلى اليمن عمالاً من قبله، فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن، وبعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى، ووصاهما صلى الله عليه وسلم بقوله: «يسراً ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً» وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله، أما أبو موسى فقدّم على الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

خطبة الوداع

وفي السنة العاشرة حج صلى الله عليه وسلم بالناس حجة ودّع فيها المسلمين، ولم يحج غيرها. وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وولّى على المدينة أبا دجانة الأنصاري، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبّى، فقال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شرك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والمُلك لا شريك لك». ولم يزل صلى الله عليه وسلم سائراً حتى دخل مكة ضحى من الثنية العليا وهي ثنية كدّاء. ولما رأى البيت قال: «اللهم زدّه تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وبراً». ثم طاف بالبيت سبعاً، واستلم الحجر الأسود، وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً ركباً على راحلته، وكان إذا صعد الصفا يقول: «لا إله إلا الله، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها.

حجة الوداع

وفي التاسع منه توجه إلى عرفة، وهناك خطب خطبته الشريفة التي بيّن فيها الدين كله أسه وفرعه، وهالك نصها:

«الحمد لله نعمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحسبكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبداً به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبداً به دم عامرين ربيعتين الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس إن النسبيّة زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً، ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حُرّم، ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حقٌ إلا يوطنن فرشكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارثٍ وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاشر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله» وفي هذا اليوم امتن الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (المائدة: 3) فلا غرابة أن اتخذ المسلمون عيداً، ويوماً سعيداً، يُظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى. ثم إنه عليه الصلاة والسلام أدى مناسك الحج من رمي الجمار، والنحر، والحلق، والطواف. وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل إلى المدينة ولما رآها كبر ثلاثاً وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبيون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

الوفود

في هذه السنة والتي قبلها كان وفود العرب إلى رسول الله ليبايعوه على الإسلام، وكانوا يقدّمون أفواجاً، ولما في أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب أن يعرفها، رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً ويُنير بصيرتك فنقول:

وفود نجران
ومن الوفود وفد نصارى نجران، وكانوا ستين ركباً، دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحريرة وأردية الحرير،

مختمين بالذهب، ومعهم بسط فيها تماثيل، ومُسُوْحُ جاؤوا بها هدية للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقبل البسط وقبل المُسُوْح. ولما جاء وقت صلاتهم صلّوا في المسجد مستقبليين بيت المقدس.

ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه الصلاة والسلام للإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن الله ولداً»، قالوا: فمن مثل عيسى خلق من غير أب؟ فأنزل الله في ذلك في سورة آل عمران: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (59) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)

وفود ضمامين ثعلبية

ومن الوفود ضمامين ثعلبية، بينما رسول الله بين أصحابه متكئاً جاء رجل من أهل البادية، ثائر الرأس، يُسمع دوي صوته، ولا يُفقه ما يقول، فأناخ جملة في المسجد، ثم قال: أيكم ابنُ عبد المطلب؟ فدّلوه عليه، فدنا منه وقال: إني سائلك فمشددٌ عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فقال: «سل ما بدا لك»، فقال: أنشدك بالله، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «نعم»، فقال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم»، فقال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا؟ قال: «اللهم نعم»، فقال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «اللهم نعم»، قال: فإني قد آمنتُ وصدقتُ وأنا ضمامين ثعلبية.

ولما ولى، قال عليه الصلاة والسلام: «فقه الرجل»، ثم ذهب ضمام إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام، وترك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم.

وفود عبد القيس

ومن الوفود عبد القيس، وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين أصحابه يوماً، فقال لهم: «سيطلع عليكم من هنا ركبٌ هم خير أهل المشرق، لم يكرهوا على الإسلام، قد أنضوا الركائب، وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس». فلما أتوا ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله، يسلمون عليه، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج، وكان أصغرهم سناً، فتحلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشي هوناً حتى سلم على رسول الله، وكان رجلاً دميماً، ففطن لنظر الرسول إلى دمامته، فقال: يا رسول الله إنه لا يُستقى في

مسوك — أي: جلود — الرجال، وإنما الرجل بأصغريه: قلبه ولسانه، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن فيك خلنتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^٧. وقد قال صلى الله عليه وسلم لهذا الوفد: «مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى»، فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإننا لا نصل إلا في شهر حرام، فمُرنا بأمر فصل، فقال: «أمركم بالإيمان بالله. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن الذبأء، والحنتم، والنقير، والمزفت» والمراد بذلك: ما ينبذ في هذه الأواني. فقال الأشج: يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة، وإننا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخص لنا في مثل هذه، وأشار إلى يده، فأوماً عليه الصلاة والسلام بكفيه، وقال: «يا أشج إن رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه — وفرج بين يديه وبسطه — حتى إذا تمّل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف». وإنما خصّ عليه الصلاة والسلام نهيهم بما ذكر لكثرة الأشربة

بينهم.

وفود بني حنيفة

ومن الوفود بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة الكذاب، وكان مسيلمة يقول: إن جعل لي الأمر من بعده اتبعته، فأقبل عليه الصلاة والسلام ومعه ثابتين قيسين شمّاس، وفي يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: «إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، وإني لأراك الذي منه رأيت». وكان عليه الصلاة والسلام قد رأى في منامه أن في يده سوارين من ذهب، فأهمه شأنهما، فأوحى الله إليه أن انفخهما فنفخهما فطارا، فأولهما صلى الله عليه وسلم كذابين يخرجان من بعده، فكان مسيلمة أحدهما، والثاني: الأسود العنسي صاحب صنعاء. وقد أسلم بنو حنيفة.

وفود طييء

ومن الوفود وفد طييء، وفيهم زيد الخيل رئيسهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم في حقه: «ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيتَه دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل» وسمّاه صلى الله عليه وسلم زيد الخير.

وفود كندة

ومنهم وفد كندة وفيهم الأشعثين قيس، وكان وجيهاً مطاعاً في قومه. ولما دخلوا على رسول الله خباؤا له شيئاً، وقالوا: أخبرنا عما خباؤنا لك؟ فقال: «سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والمنتكهن في النار». ثم قال: «إن الله بعثني بالحق، وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»، فقالوا: أسمعنا منه، فتلا عليه الصلاة والسلام: وَالصَّافَاتِ صَفَاً (1) فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ الهَكْمَ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) وَلئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87)

وفود أزد شنوءة

ومنهم وفد أزد شنوءة، ورئيسهم صردبن عبد الله الأزدى، فأسلموا وأمره عليهم، وأمره بأن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

وفود رسول ملوك حمير

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قَيْلُ ذِي رُعَيْن، ومَعَاظِرَ، وهَمْدَان، وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

كتاب ملوك حمير

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان قَيْلِ ذِي رُعَيْن، ومَعَاظِرَ، وهَمْدَان. أما بعد: فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد وقع بنا رسولكم مقلنا من أرض الروم، فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به، وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم، وقتلك المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خُمُسَ الله، وسهم النبي وصفيّه، وما كُتِبَ على المؤمنين من الصدقة. أما بعد: فإن محمداً النبي أرسل إلى زُرْعَةَ بْنِ ذِي يَزَنَ إِذَا أَتَاكُمْ رُسُلِي فَأَوْصِيكُمْ بِهِمْ خَيْرًا: مُعَاذِينَ جَبَلٍ، وَعَبْدَ اللَّهْبَنِ زَيْدٍ، وَمَالِكِينَ عُبَادَةَ، وَعُقْبَةَ بْنَ نَمِرٍ، وَمَالِكِينَ مَرَّةً وَأَصْحَابَهُمْ، وَأَنْ اجْمَعُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْجَزِيَةِ مِنْ مَخَالِفِكُمْ، وَأَبْلُغُوا رُسُلِي، وَإِنْ أَمِيرُهُمْ مُعَاذِينَ جَبَلٍ فَلَا يَنْقَلِبَنَّ إِلَّا رَاضِيًا، وَأَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مُحَمَّدًا يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ إِنَّ مَالِكِينَ مَرَّةَ الرَّهَاطِيِّ قَدْ حَدَّثَنِي أَنَّكَ قَدْ أَسْلَمْتَ مِنْ أَوَّلِ حَمِيرٍ، وَقَتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَبْشِرْ بِخَيْرٍ وَأْمُرْكَ بِحَمِيرٍ خَيْرًا، وَلَا تَخُونُوا وَلَا تَخَازِلُوا، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ هُوَ مَوْلَى غَنِيكُمْ وَفَقِيرِكُمْ، وَإِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِأَهْلِ بَيْتِهِ، إِنَّمَا هِيَ زَكَاةٌ يُزَكَّى بِهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَإِنْ مَالِكًا قَدْ بَلَغَ الْخَبَرَ، وَحَفِظَ الْغَيْبَ، وَأْمُرْكُمْ بِهِ خَيْرًا، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وفود همدان

ومنها وفد همدان، وفيهم مالكين نمط، وكان شاعراً مجيداً، فلقوا رسول الله مرَّجعةً من تبوك، عليهم مقطعات من الحبرات اليمينية، والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى مَنى صَوَادِرَ بالركبانِ من هَضْبِ قَرَدِيَّانِ رسولَ اللهِ فينا مُصدِّقُ رسولٍ أتى من
عند ذي العرشِ مهتدِفاً حملتُ من ناقةٍ فوقَ رحلها أشدَّ على أعدائهِ من محمدٍ وقد أمره صلى الله عليه
وسلم على من أسلم من قومه، وقد قال الرسول في حق همدان: «نعم الحي همدان، ما أسرعها إلى النصر
وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال وفيهم أوتاد».

وفود تُجيب

ومنها وفد تُجيب، قبيلة من كندة، وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلاً منهم، ومعهم صدقات أموالهم التي
فرض الله عليهم، فسُرَّ بهم عليه الصلاة والسلام وأكرم مَثَواهم، وقالوا: يا رسول الله إنا سقنا إليك حق الله
في أموالنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ردوها فاقسموها على فقرائكم». فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا
عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا من وفد من العرب مثل هذا. فقال
عليه الصلاة والسلام: «إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان»، وجعلوا يسألونه عن
القرآن، فزاداد صلى الله عليه وسلم رغبة فيهم، ثم أرادوا الرجوع إلى أهلهم فقيل لهم: ما يجعلكم؟ قالوا:
نرجع إلى مَنْ وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إياه وما ردَّ علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله
فودعوه، فأجازهم بأفضل ما كان يُجيز به الوفود، ثم قال لهم: «هل بقي منكم أحد؟» قالوا: غلام خلفناه في
رحالنا وهو أحدثنا سناً، قال: «فأرسلوه إلينا» فأرسلوه، فأقبل الغلام، وقال: يا رسول الله أنا من الرهط
الذين أتوك أنفاً ففضيت حاجتهم فأقض حاجتي، قال: «وما حاجتك؟» قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمي
ويجعل غناي في قلبي. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اغفر له، وارحمه، واجعل غناه في قلبه»، ثم
أمر له بمنل ما أمر به لرجل من أصحابه.

وفود ثعلبة

ومنها وفد ثعلبة، وفد على رسول الله أربعة منهم مقرين بالإسلام، فسلموا عليه وقالوا: يا رسول الله إنا
رُسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرُّون بالإسلام، وقد قيل لنا: إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال
عليه الصلاة والسلام: «حيثما كنتم واتقَّيتم الله فلا يضركم»، ثم قال لهم: «كيف بلادكم؟» فقالوا:
مخصبون، فقال: «الحمد لله». ثم أقاموا في ضيافته أياماً، وحين إرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم
بخمس أواق من فضة.

وفود بني سعدبن هُذَيم

ومنها وفد بني سعدبن هذيم من قُضَاعَةَ، قال النعمان منهم: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَفْدَأَ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي، وَقَدْ أَوْطَأَ رَسُولُ اللَّهِ الْبِلَادَ، وَأَزَاحَ الْعَرَبَ، وَالنَّاسَ صَنْفَانِ: إِمَّا دَاخِلَ فِي الْإِسْلَامِ رَاغِبٍ فِيهِ، وَإِمَّا خَائِفَ السَّيْفِ، فَنَزَلْنَا نَاحِيَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ خَرَجْنَا نَوْمُ الْمَسْجِدِ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى بَابِهِ، فَوَجَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ يَصْلِي عَلَى جَنَازَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَمْنَا خَلْفَهُ نَاحِيَةَ، وَلَمْ نَدْخُلْ مَعَ النَّاسِ فِي صَلَاتِهِمْ، وَقَلْنَا حَتَّى يَصْلِيَ رَسُولُ اللَّهِ وَنُبَايِعَهُ. ثُمَّ انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ فَنظَرَ إِلَيْنَا فَدَعَا بِنَا فَقَالَ: «مَمَّنْ أَنْتُمْ؟» فَقَلْنَا مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ هُذَيْمٍ، فَقَالَ: «أَمْسَلُمُونَ أَنْتُمْ؟» قَلْنَا: نَعَمْ، فَقَالَ: «هَلَّا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ أَخِيكُمْ؟» قَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ظَنَنَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ حَتَّى نُبَايِعَكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَيْنَمَا أَسْلَمْتُمْ فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ». قَالَ: فَأَسْلَمْنَا وَبَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيْدِينَا، ثُمَّ انصَرَفْنَا إِلَى رِحَالِنَا، وَقَدْ كُنَّا خَلْفَنَا عَلَيْهَا أَصْغَرْنَا فَبِعَثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي طَلْبِنَا، فَأَتَى بِنَا إِلَيْهِ فَتَقَدَّمَ صَاحِبِنَا فَبَايَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ أَصْغَرْنَا وَإِنَّهُ خَادِمُنَا، فَقَالَ: «سَيِّدُ الْقَوْمِ خَادِمُهُمْ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ». قَالَ النعمان: فَكَانَ خَيْرِنَا وَأَقْرَبُنَا لِلْقُرْآنِ لِدَعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ أَجَازَهُمْ وَانصَرَفُوا.

وفود بني فزارة

ومنها وفد بني فزارة، وقد على رسول الله جماعة منهم مقرين بالإسلام وهم مُسَيِّنُونَ، فسألهم عليه الصلاة والسلام عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله أَسُنَّتْ بِلَادُنَا، وَهَلَكْتَ مَوَاشِينَا، وَأَجْدَبَ جَنَابُنَا، وَجَاعَتِ عِيَالُنَا. فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُغْنِنَا. وَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، وَلِيَشْفَعْ لَنَا رَبِّكَ إِلَيْكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سَبِحَانَ اللَّهُ وَيَلِكُ هَذَا أَنَا أَشْفَعُ إِلَى رَبِّي، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ رَبِّنَا إِلَيْهِ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ تَتَبُّهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ كَمَا يَبْطُ الرِّحْلُ الْحَدِيثَ». أَيُّ مَنْ تَقَلَّ الْحَمْلَ. ثُمَّ صَعِدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمَنْبِرَ، وَدَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى أَغَاثَ بِلَادَ هَذَا الْوَفْدِ بِالْمَطَرِ الْغَزِيرِ، وَالرَّحْمَةَ التَّامَةَ.

وفود بني أسد

ومنها وفد بني أسد، وفيهم: ضيرار بن الأزور وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة بعد ذلك، فأسلموا، وقالوا: يا رسول الله أتيناك نتدري الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل الله في ذلك: يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17)

وفود بني عذرة

ومنها وفد بني عذرة، ووفد بني بلي، ووفد بني مرة، ووفد خولان — وهي قبائل باليمن — وقد أمرهم عليه الصلاة والسلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً

فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة.

وفود بني مُحارب

ومنها وفد بني محارب، وكانوا من الذين رُدُّوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعاظ يدعو القبائل إلى الله، فما أعظم منة الله الذي أتى بهؤلاء — وكانوا ألد الأعداء — مسلمين مُنقادين

وفود غَسَّان

ومنها وفد غسان، ووفد بني عَبَس، ووفد النخع.

وكان عليه الصلاة والسلام يقابل هذه الوفود بما جَبَلَهُ الله عليه من البشاشة، وكرم الأخلاق، ويُجيزهم بما يرضيهم، ويعلمهم الإيمان والشرائع، ليعلموا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي.

وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام

وفي هذه السنة توفي إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السنة الحادية عشرة

سرية

لأربع بقين من صفر، جهز عليه الصلاة والسلام جيشاً برياسة أسامة بن زيد إلى أُنْبَى حيث قتل زيد بن حارثة، والد أسامة، وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتكَ هذا الجيش، فأغرُ صباحاً على أهل أُنْبَى، وحرِّق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلَّ اللبث فيهم، وخذ الأدلاء، وقدَّم العيون والطلائع معك». وكان مع أسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد.

ثم عقد عليه الصلاة والسلام لأسامة اللواء، وقال له: «اغزُ باسم الله، في سبيل الله، وقاتل من كفر بالله».

وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين، فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً، وخرج، فقال: «أما بعد، أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وإيم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليقٌ بها، وإن كان لمن أحبَّ الناس إليَّ، وإنهما لمظنة لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم».

ولم يتم لهذا الجيش الخروج في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لأن المرض بدأه فاختره الله للرفيق

الأعلى. وسيرى القارىء إن شاء الله خروج هذا الجيش متمماً في كتابنا «إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء».

لما تمّ عليه الصلاة والسلام ما كُلفَ به، وأدى ما أوْتُمِنَ عليه، وهدى الله به أمته، اختاره الله للرفيق الأعلى، فجلس على المنبر مرة، وكان فيما قال: «إن عبداً خيّرهُ الله بين أن يؤتِيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختر ما عنده». فبكى أبو بكر، وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمّهاتنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أمنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد خوذة إلا سدّت إلا خوذة أبي بكر».

وقد بدأه عليه الصلاة والسلام مرضه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة، واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً، كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرضَ في بيت عائشة الصديقة فأذنَّ له، ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه، قال: «هريقوا علي من سبع قَرَبٍ لم تُحلَّلْ أو كَيْتُهْنِ لعلِّي أعهد إلى الناس». فأجلس في مخضَب، وصبَّ عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتَن، وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب مَنْ يضع يده فوق ثيابه.

صلاة أبي بكر بالناس

ولما تعذّر عليه الخروج إلى الصلاة قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فرضيه عليه الصلاة والسلام خليفة له في حياته. ولما رأت الأنصارُ اشتدادَ وجع الرسول طافوا بالمسجد، فدخلَ العباس، وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عليّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبى معصوبُ الرأس يخطُّ برجليه، حتى جلس في أسفل مِرْقاة المنبر، وثار الناس إليه فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ (3) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)

وبينما المسلمون في صلاة الفجر، من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول، وأبو بكر يصلي بهم، إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سِجْفَ حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى

الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله، فأشار إليهم بيده: أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجر وأرخى الستر.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياه، ولحق بمولاه، وكان ذلك في يوم الاثنين 13 ربيع أول سنة 11 (8 يونيو سنة 633) فيكون عمره عليه الصلاة والسلام 63 سنة قمرية كاملة، وثلاثة أيام، وإحدى وستين شمسية، وأربعة وثمانين يوماً، وكان أبو بكر غائباً بالسُّنْح — وهي منازل بني الحارثين الخزرج — عند زوجه حبيبة بنت خازجة بن زيد، فسلَّ عمر سيفه، وتوعدَّ مَنْ يقول: مات رسول الله، وقال: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فلبثَ عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يُقَطَّعَ أيدي رجالٍ وأرجلهم.

فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله، فجنَّا يُقبَلُه، ويبكي، ويقول: توفي والذي نفسي بيده صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين. ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا من كان يعبدُ محمداً، فإنَّ محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وتلا قوله تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين، وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء، حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم، فغُسلَ ودُفِنَ، وكان الذي يغسله عليُّ بن أبي طالب، ويساعده العباسُ، وابناه الفضل وقُثم، وأسامة بن زيد، وشُقْران مولى رسول الله، وكُفِنَ في ثلاثة أثواب بيض، ليس فيها قميص ولا عمامة. ولما فرغوا من تجهيزه وُضع على سريره في بيته، ودخل الناس عليه أرسالاً متتابعين يُصلُّون عليه، ولم يؤمهم أحد، ثم حُفِرَ له لحد في حجرة عائشة حيث توفي، وأنزله القبرَ عليّ والعباس وولداه الفضل وقُثم، ورَسَّ قبره بلال بالماء، ورفع قبره عن الأرض قدر شبر. توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شيء: كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وترك أصحابه البررة الكرام، يوضِّحون الدين، ويتممون فتح البلاد، ويُظهرون في الدنيا شمس الدين الإسلامي القويم، حتى يتمَّ الله كلمته، وبحقَّ وعده، وقد فعل، فنسأل الله أن يقدرنا على أداء شكره على هذه المنَّة العظمى، والنعمة الكبرى.

شمانته عليه الصلّاة والسّلام

منح الله سبحانه نبيّنا صلى الله عليه وسلم من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممّن قبله أو بعده، ولا بدّ أن نأتي لك في هذا الباب بنبذة يسيرة من محاسن صفاته، وأحاسن آدابه، لتكون لك أنموذجاً تسيّر عليه، حتى تكون على قدم نبيّك صلى الله عليه وسلم، فتستحق الحمد في الدنيا والآخر في الأخرى. فاعلم — أرشدني الله وإياك، وهدانا للصرّاط السوي — أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دينوي: اقتضته الجبلة، وضرورة الحياة، ومكتسب ديني: وهو ما يُحمد فاعله ويُقرب إلى الله زلفى.

فأما الضروري: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبّله عليه الصلاة والسلام من كمال الخلق، وجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزة القوم، وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه. أما المكتسبة الأخروية: فسائر الأخلاق العليّة والآداب الشرعية من الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها وهي التي يجمعها حسن الخلق.

فإذا نظرت — رعاك الله — إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة، وفي جبلة الخلق، وجدته عليه الصلاة والسلام حائزاً لجميعها، محيطاً بشتات محاسنها. فأما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حُسْنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه صلى الله عليه وسلم كان: أزهر اللون، أدعج، أنجل، أشكل، أهدب الأشفار، أبلج أزج أفنى أفلج مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية تملأ صدره، سواء البطن عظيم الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبّل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرّد، دقيق المسرّبة، ربة القدّ، ليس بالطويل البائن، ولا القصير المتردّد، ومع ذلك فلم يكن يُماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله صلى الله عليه وسلم، رجّل الشعر، إذا افتّر ضاحكاً افتّر عن مثل سنا البرق، وعن مثل حبّ الغمام، وإذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عُنفاً، ليس بمطهمّ، ولا مكثّم، متماسك البدن، ضرب اللحم. قال البراءين عازب: ما رأيت من ذي لمة سوداء، في حلة حمراء، أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا

ضحك يتلألاً في الجُدُر. وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألاً وجهه تالئاً القمر ليلة البدر. وقال علي في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابئة، ومن خالطه معرفةً أحبته، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم.

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأذكار، وعورات الجسد، فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافة الشرع. قال عليه الصلاة والسلام: «بني الدين على النظافة». وقال أنس: ما شمت عنبراً قط، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن جابر بن سمرة، أنه عليه الصلاة والسلام مسح خذّه، قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار. قال غيره: مسّها بطيب أو لم يمسّها. يصفح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، يضع يده على رأس الصبي، فيعرف من بين الصبيان بريحتها، وروى البخاري في تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمرّ في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه. وأما وفور عقله صلى الله عليه وسلم، وذكاء لُبّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله، فلا مريّة أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمرَ بواطن الخلق، وظواهرهم، وسياسته للعامة والخاصة، مع عجب شمائله وبديع سيره فضلاً عمّا أفاده من العلم، وقرّره من الشرع، دون تعلم سابق، ولا ممارسة تقدّمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتّر في رُجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة. وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وبذلك فسّر قوله تعالى: وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)

وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحلّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكيم، وخصّ ببدايع الحكم، وعلم أسنة العرب، فكان يُخاطب كل أمةٍ منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويأريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله. من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحقّقه. وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقبال حضرموت، وملوك اليمن، وعظماء نجد. بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ، وما انتهجته من طرق البلاغة ليبيّن للناس ما نُزّل إليهم، وليحدّث الناس بما يعلمون.

وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة، فقد أَلَّفَ النَّاسُ فِيهَا الدَّوَاوِينَ، وَجُمِعَتْ فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا الْكُتُبُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُوَازِي فَصَاحَةَ، وَلَا يُبَارِي بِلَاغَةَ، كَقَوْلِهِ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ». وَقَوْلِهِ: «النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ»، وَ«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، وَ«لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ»، وَ«النَّاسُ مَعَادِنٌ»، وَ«مَا هَلَكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ»، وَ«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»، وَ«رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَنَعِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ». وَقَوْلِهِ: «أَسْلِمَ تَسْلِمًا، وَأَسْلَمَ يُؤْتِكُ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»، وَ«إِنْ أَحْبَبَكُمُ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمُ مِنِّي مَجَالَسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحْسَبُكُمْ أَخْلَاقًا الْمَوْطُوءُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ». وَقَوْلِهِ: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ يَبْخُلُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ»، وَقَوْلِهِ: «ذُو الْوَجْهِينِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا». وَنَهْيِهِ عَنِ «قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَمَنْعِ وَهَاتِ، وَعَقُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَوَادِ الْبِنَاتِ»، وَقَوْلِهِ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَ تَمَحُّمًا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، وَ«خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا». وَقَوْلِهِ: «أَحْبَبُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بِغَيْضِكَ يَوْمًا مَا»، وَقَوْلِهِ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلْمَمُ بِهَا شَعْتِي، وَتُصَلِّحُ بِهَا غَائِبِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمَنِي بِهَا رُشْدِي، وَتُرَدِّدَ بِهَا أَلْفَتِي، وَتَعْصِمَنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْقَضَاءِ، وَنُزْلَ الشَّهَادَةِ، وَعَيْشَ السَّعَادَةِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ». إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا رَوَتْهُ الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ عَنْ مَقَامَاتِهِ، وَمَحَاضِرَاتِهِ، وَخُطْبِهِ، وَأَدْعِيَّتِهِ، وَمَخَاطَبَاتِهِ، وَعَهْوَدِهِ، مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرْتَبَةً لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهَا سَبَقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ. وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُهُ: مَا رَأَيْنَا الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ، فَقَالَ: «وَمَا يَمْنَعُنِي؟ وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بِلِسَانِي، لِسَانَ عَرَبِي مُبِينٍ». وَقَالَ

مرة أخرى: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد». فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشر.

وأما سرّ ونسبه، وكرم بلده، ومنشئه، فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكّل، ولا خفي منه. فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزّهم نفرًا من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده. وقد قدّمنا لك في أول الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام.

أما ما تدعو إليه ضرورة الحياة، فمنه ما الفضل في قلته، ومنه ما الفضل في كثرته، ومنه ما تختلف الأحوال فيه، فالأول: كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء قديمًا تتماذج بقلتهما، وتذم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهَم والحِرص، والشَرَّة وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد، وختارة النفس، وامتلاء الدماغ. وقلته دليل على القناعة، وملك النفس. وقمع الشهوة، مُسبّب للصحة، وشفاء خاطر، وحدة الذهن، كما أن النوم دليل على الفسولة والضعف، وعدم الذكاء

والفطنة، مسببٌ للكسل، وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته. وكان عليه الصلاة والسلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل، وحضَّ عليه قال صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءَ شراً من بطنه، حسبُ ابنِ آدمَ لُقَيْمَاتُ يُعْمَنَ صَلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَتَلَّتْ لَطْعَامُهُ، وَتَلَّتْ لَشْرَابِهِ، وَتَلَّتْ لِنَفْسِهِ». ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يمتلىء جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب. وفي صحيح الحديث: «أما أنا فلا آكل متكئاً» والاتكاء: هو التمكن للأكل، والتعذُّد في الجلوس له، كالمترجع وشبهه، من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنبي عليه الصلاة والسلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مُقْعِيّاً، ويقول: «إنما أنا عبد، أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، وكذلك نومه كان قليلاً، ومع ذلك فقد قال: «إِنَّ عَيْنِي تَتَامَانُ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

وأما ما الفضل في كثرته، فكالجاه، وهو محمودٌ عند العقلاء عادة، وبقدْرِ جاهه عِظْمُهُ في القلوب، وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ {آل عمران: 45}.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رُزِقَ من الحشمة، والمكانة في القلوب، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، كما ذكرنا ذلك مراراً، وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته مَنْ لم يره، كما روي عن قَيْلَةَ أنها لما رأتَهُ أُرْعِدَتْ مِنَ الْفَرَقِ فَقَالَتْ: «يَا مَسْكِينَةَ عَلَيْكَ السَّكِينَةُ». وفي حديث أبي مسعود، أن رجلاً قام بين يديه فأرْعَدَ، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هُوَ نَّ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ».

وأما عظيم قدره بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا، فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات في التمدح به، والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله، ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظمٌ عند العامة لاعتقادها تَوَصُّلَهُ بِهِ إِلَى حاجته، وتمكّنه في أغراضه، وإلا فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان بهذه الصورة، وصاحبه مُتَّفَقاً لَهُ فِي مهماته، ومهمات من قصده وأملُهُ، يصرفه في مواضعه، مشترياً به المعالي والثناء الحسن، والمنزلة في القلوب. كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا. وإذا صرفه في وجوه البرّ، وأنفقه في سبل الخير، وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكل بكل

حال، ومتى كان صاحبه مُسكاً له، غير موجهه وجوهه، حريصاً على جمعه، عادت كثرته كالعدم، وكان مَنْقَصَةً في صاحبه، ولم يقفُ به على جَدِّ السلامة، بل أوقعه في وَهْدَةِ رذيلة البخل، ومذمَّة النذالة، فالتمدح بالمال ليس لذاته بل للتوصل به إلى غيره، وتصريفه في مُتَصَرِّفاته، ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلَّتْ له الغنائم، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب، وما داني ذلك من الشام والعراق، وجلب إليه كثير من أخماسها وجزيئها وصدقاتها، وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفة، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وقال: «ما يسرني أن لي أُحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لديني».

وأنته دنانير مرة فقسمها، وبقيت منها بقية فدفعتها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام فقسمها، وقال: «الآن استرحت».

ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله، واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجدته، فيلبس في الغالب الشَّمْلَةَ، والكساء الخشن، والبُرْدُ الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخصوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر، فأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاز فضيلة المال بالزهد فيه، وإنفاقه على مستحقه.

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهي المسماة بحسن الخلق فجميعها قد كانت خلق نبينا صلى الله عليه وسلم على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (4)

فأصل فروعها، وعنصرُ بنايبيها، ونقطة دائرتها: العقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع عن هذا ثقبُ الرأي، وجودة الفطنة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل، وقد بلغ عليه الصلاة والسلام منه ومن العلم الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، يعلم ذلك من تتبّع مجاري أحواله، واطّراد سيره، وطالع جوامع كلمه، وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسير الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة وإشارات حجة، كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارس، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبي أمي لا يعرف شيئاً من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره وعلمه. وبحسب

عقله كانت معارفه عليه الصلاة والسلام إلى سائر ما علّمه الله، وأطلعته عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته قال تعالى: وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء: 113).

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكرهه، فمما أدّب الله به نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (199) وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ { (لقمان: 17). وقال: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (النور: 22). وقال: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (43).

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيرَ عليه الصلاة والسلام في أمرين قطّ إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله». ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أحد، وطلب منه أن يدعو عليهم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه، واستهزؤوا به، وأخرجوه من دياره هو وأصحابه، ثم قاتلوه، وحرّضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «ما تقولون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء». وعن أنس: كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وعليه بُرد غليظ الحاشية فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه، ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي ثم قال: «المال مال الله وأنا عبده». ثم قال: «ويؤقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي» قال: لا، قال: «لم؟» قال: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة، فضحك عليه الصلاة والسلام، ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر.

قالت عائشة: ما رأيت رسول الله منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً ولا امرأة، فصلى الله تعالى عليه، وأقر عينه باتباع المسلمين سنته.

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة، فكان عليه الصلاة والسلام لا يُوازي في هذه الأخلاق الكريمة، ولا يُبارى. وصفه بهذا كل من عرفه، قال جابر رضي الله عنه: ما سئل عليه الصلاة والسلام عن شيء فقال:

لا. وقال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام أجودَ الناس بالخير، وأجودَ ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلّة. وقالت خديجة في صفته عليه الصلاة والسلام مخاطبة له: إنك تحمل الكَلَّ، وتكسبُ المعدوم. وحسبُك شاهداً في هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردِّ السبي إليها، وما فعله يوم تقسيم السبي من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الأعتية. وقد استوفينا ذلك في موضعه. وحُمِل إليه عليه الصلاة والسلام تسعون ألفاً، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها. وجاءه رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضينا» فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدرُ عليه، فكره ذلك عليه الصلاة والسلام، فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخفُ من ذي العرش إقلالاً، فتبسم عليه الصلاة والسلام وعُرفَ البشرُ في وجهه وقال: «بهذا أمرتُ». والأخبار بجوده وكرمه عليه الصلاة والسلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه. ومنها الشجاعة والنجدة، فكان عليه الصلاة والسلام منهما بالمكان الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرَّ الكُماةُ والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومُقبِل لا يُدبر، ولا يترحزح، وما من شجاع إلا أُحصيت له فرّة، وحفظت عنه جولة، سواه. وحسبك ما فعله في حُنَيْنٍ وأُحدٍ مما ذكرناه مستوفى.

وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ ولا أجودَ ولا أَرْضَى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال عليّ: إنا كنا إذا اشتد البأسُ، واحمَرَّتِ الحَدَقُ اتقينا برسول الله، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتُني يوم بدر، ونحن نلوذُ بالنبى صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً. وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أشجعَ الناس، وأحسنَ الناس، وأجودَ الناس، لقد فرغ أهل المدينة ليلةً، فانطلق ناسٌ قبيل الصوت، فتلقاهم عليه الصلاة والسلام راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عُرِي، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تُراعوا».

وأما الحياء والإغضاء، فكان عليه الصلاة والسلام أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال أبو سعيد الخدري: كان عليه الصلاة والسلام أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه. وكان عليه الصلاة والسلام لطيفَ البشرة، رقيقَ الظاهر، لا يُشَافهُ أحدٌ بما يكرهه، حياءً وكرمَ نفس. قالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا وكذا؟ بل يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟». ينهى عنه ولا يُسمِّي فاعله، وقالت رضي الله عنها: لم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخاباً بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وأما حسن عشرته وأدبه، وبسط خلقه مع أصناف الخلق، فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال علي رضي الله عنه: كان عليه الصلاة والسلام أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. وكان عليه الصلاة والسلام يؤلفهم، ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم ويؤليّه عليهم، ويحذّر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي على أحد منهم بشره، ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه. من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقّه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء، بهذا وصفه ابن أبي هالة. وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صحاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه، قال تعالى: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** (آل عمران: 159). وقال تعالى: **{ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** (فصلت: 34).

وكان عليه الصلاة والسلام يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كُراعاً، ويكافئ عليها، وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويلعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر. وقال أنس: ما التقم أحد أذن النبي يحادثه فحى رأسه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحى رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر.

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط ماذا رجليه بين أصحابه حتى يُضيقَ بهما على أحد، يُكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبا، ويكني أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرماً لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يتجوّر فيقطعه بنهي أو قيام، وكان أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم يُنزل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب.

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد وصفه الله بها في قوله تعالى: **{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** (التوبة: 128). وقال: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** (107)

روي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: «أحسننت إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه، وزاده شيئاً، ثم قال:

«أحسنْتَ إليكَ؟» فقال: نعم، فجزاك اللهُ من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنك قلتَ ما قلتَ، وفي أنفِ أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ، حتى يذهبَ ما في صدورهم عليك» قال: نعم، فلما كان الغد — أو العشي — جاء فقال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه فزعمَ أنه رضي أذكلك؟» قال: نعم، فجزاك اللهُ من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: «مثلي ومثُلُ هذا مثلُ رجلٍ له ناقةٌ شردتْ عليه، فاتَّبَعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي فإنني أرفقُ بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردَّها، حتى جاءتُ واستناختُ، وشدَّ عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيثُ قال الرجلُ ما قال فقتلتموه دخل النار». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يُبلِّغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر». وكان يسمعُ بكاء الصبي فيتجوَّزُ في صلاته. وعن ابن مسعود كان عليه الصلاة والسلام يتخولنا بالموعدة مخافة السامة علينا.

وأما خلقه عليه الصلاة والسلام في الوفاء، وحسن العهد، وصلة الرحم، فروي عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي عليه الصلاة والسلام ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتُ له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرتُ بعد ثلاث، فجننتُ، فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى، لقد شققت عليّ أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك». وكان إذا أتيتُ بهدية، قال: «اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبُّ خديجة». وكان عليه الصلاة والسلام يصلُ ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. ووفدَ عليه وفد، فقام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نكفيك، فقال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم». وفي حديث خديجة: أبشر، فوالله لا يخزيك اللهُ أبداً، إنك لتصلُ الرحم، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام، على علو منصبه ورفعة رتبته، فكان أشدَّ الناس تواضعاً، وأقلهم كبراً، وحسبك أنه خيرٌ بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً، وخرج عليه الصلاة والسلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا، فقاموا، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعظَّم بعضهم بعضاً». وقال: «إنما أنا عبدٌ، أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد». وكان يركب الحمار ويُريفُ خلفه، ويعود المساكين، ويُجالس الفقراء، ويُجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْلِ رَثٍّ، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم فقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة» هذا وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجه ذلك

مائة بَدَنَةٍ. ولما فُتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كادَ يَمَسُّ قادمته تواضعاً لله تعالى. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: دخلتُ السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتري سراويل، وقال للوازن: «زن وأرجح»، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، فجذب يده، وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم»، ثم أخذ السراويلَ فذهبتُ لأحمله قال: «صاحبُ الشيء أحقُّ بشيئه أن يحمله».

وأما عدله عليه الصلاة والسلام، وأمانته، وعفته، وصدق لهجته، فكان آمنَ الناس، وأعدلَ الناس، وأعفَّ الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادُّوه وأعداؤه، وكان يُسمَّى قبل نبوته الأمين، وقد قدَّما ذلك في سيرته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة. وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: ما لمست يدهُ يدَ امرأةٍ قطَّ لا يملك رقبها. قال أبو العباس المبرِّد: قَسَمَ كسرى أيامه، فقال: يومَ الريحِ يَصْلحُ للنوم، ويومُ الغيمِ للصيد، ويومَ المطرِ للهو والشرب، ويومُ الشمسِ للحوائج. ولكن نبينا عليه الصلاة والسلام جزأً نهاره ثلاثة أجزاء، جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأً جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «أبلغوا حاجة مَنْ لا يستطيعُ إبلاغها، فإن من أبلغ حاجة مَنْ لا يستطيعُ إبلاغها آمنهُ الله يومَ الفزع الأكبر». وكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذُ أحداً بذنب أحد، ولا يصدقُ أحداً على أحد.

وأما وقاره عليه الصلاة والسلام وصمته، وتؤدته، ومروءته، وحسن هديه. فكان عليه الصلاة والسلام أوقرَ الناس في مجلسه، لا يكادُ يُخرج شيئاً من أطرافه، وكان إذا جلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثرَ جلوسه محتبياً. وكان كثيرَ السكوت، لا يتكلم في غير حاجة. يُعرض عمَّن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحكُ أصحابه عنده التبسم توقيراً له، واقتداءً به. مجلسه مجلسُ حلم وحياء وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤبِنُ فيه الحرْمُ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. وقال ابن أبي هالة: كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان صلى الله عليه وسلم يُحدِّثُ حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه، وكان يُحبُّ الطيب، والرائحة الحسنة، ويستعملهما كثيراً، ويحضُّ عليهما. ومن مروءته صلى الله عليه وسلم نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسواك وإنشاء البراجم والرواجب (مفاصل الأصابع من ظاهر الكف وباطنهما).

وأما زهده عليه الصلاة والسلام في الدنيا فقد قدّمنا لك فيه ما فيه الكفاية، وحسبك شاهداً على تقلُّبه من الدنيا، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذاقيرها، وترادفت عليه فتوحها، أنه توفي عليه الصلاة والسلام، ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله. وهو يدعو ويقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً». وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله. وقالت: ما ترك عليه الصلاة والسلام ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً، ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله نو كبد إلا شطر شعير في رف لي. وقال: «إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا ربّ أجوع يوماً، وأشبع يوماً. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأنتي عليك»، وقالت عائشة: إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء. وعن أنس: ما أكل عليه الصلاة والسلام على خوان، ولا في سكرجة، ولا خبز له مرقق، ولا أرى شاة سمياً قط.

وفي حديث حفصة: كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته مسحاً نثيه ثنيتين، فينام عليه، فثيناه ليلة بأربع، فلما أصبح، قال: «ما فرستم لي؟» فذكرنا له ذلك فقال: «ردّوه بحاله فإن وطأته منعني الليلة صلاتي».

وقالت عائشة: لم يمتلئ جوف النبي عليه الصلاة والسلام شبعاً، ولم يبيت شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى. وإن كان ليظلّ جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه. ولو شاء ربّه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها. ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به، وأمسخ بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلّغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: «يا عائشة ما لي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم. فأجدني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحب إليّ من اللحوق بإخواني وأخلاتي». قالت: فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفي صلوات الله عليه وسلامه.

وأما خوفه ربه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه. ولذلك قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» «أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظت — صوتت — السماء وحق لها أن تظت ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلوذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى. لوددت أني شجرة تعضد».

وكان عليه الصلاة والسلام يصلي حتى تَرَمَ قدماه، فقيل له: أَنْكَفَ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديممةً، وأيُّكم يطيق ما كان يطيق؟ وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم. وقال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فاستأك، ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقامت معه فاستفتح البقرة، فلا يمرّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه، يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد، وقال مثل ذلك. ثم قرأ (آل عمران) ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك. وقال بعضهم: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، وفي وصف ابن أبي هالة: كان متواصل الأحران دائم الفكرة ليست له راحة.

وعن علي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحني، والصبر رداي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة، وثمره فؤادي في ذكره، وغمي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي» فجزاه الله من نبي عن أمته خيراً، ورحم الله عبداً تأمل في هذه الشمانل الكريمة والخصال الجميلة فتمسك بها، واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحوز شفاعته يوم الفرع الأكبر، ويرضى الله عنه، فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين.

مُعْجَزَاتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إذا تأمل المتأمل ما قدّمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله. لم يمتز في صحة نبوته، وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به كعبد اللهين سلام. فإنه قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جنته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذاب. وروى مسلم أنّ ضماداً لما وفد عليه قال له صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» فقال له ضماد: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبابيك. ولما بلغ ملك عُمان أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام، قال: والله لقد دلّني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينها عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز الموعد، وأشهد أنه نبي. وقال ابن رواحة: لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره يُنبئك بالخبر كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من

المعجزات ما لا يفي به العَدّ، فهو أكثر الأنبياء آيةً، وأظهرهم برهاناً، وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقرُّ به عينك، ويزداد به يقينك، مما رواه الجَمّ الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم، وأثبتته المحدثون في صحاحهم، ونبدأ منها بأظهرها شأنًا، وأوضحها بيانًا، وهو القرآن الشريف وإعجازه. اعلم أن كتاب الله العزيز مُنطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة:

أولها: حسن تأليفه، والتتام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يُخصَّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يُؤتَ إنسان، ومن فصل الخطاب ما يُقَيِّد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقاً، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهية بالعجب، ويُدُلُّون به إلى كل سبب، يخطبون بديهاً في المقامات، وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويقدحون ويمدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسَّحر الحلال، ويُطَوِّقون من أوصافهم أجملَ من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويُدْهبون الإحن، ويُهيجون الدَّمن، ويجرِّئون الجبان، ويصبرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفَصْل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي، ومنهم الحضري، ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلاهما له في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقِدْحُ الفالج، والمَهْيَعُ الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حَووا فنونها، واستتبوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلَّوا صرحاً لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتقننوا في الغثِّ والسمين، وتناولوا في القُلِّ والكُثْر، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) (38) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا { (البقرة: 23 — 24)، قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)

فلم يزل يقرعهم أشدَّ التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفّه أعلامهم، ويحطُّ أعلامهم، ويشتتُّ نظامهم، ويذمُّ آلهتهم وآباءهم، ويستبجح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون

عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والاعتزاز بالافتراء، وقولهم: **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ (القمر: 2).** و**{إِفْكٌ افْتَرَاهُ (الفرقان: 4).** و**{أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (الأنعام: 25).** والمباهة، والرضا بالدنية. كقولهم: **{قُلُوبُنَا غُلْفٌ (البقرة: 88)،** و**{فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ (فصلت: 5)،** و**{لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (فصلت: 26)،** والادعاء مع العجز، كقولهم: **{لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا (الأنفال: 31)** وقد قال لهم: **{وَلَنْ تَفْعَلُوا (البقرة: 24)** فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة، كُشِفَ عواره لجميعهم. وسلبهم الله ما أفوه من فصيح كلامهم، وإلا لم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا إليه مدعين، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ (البقرة: 179)** وقوله: **{لَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51)** ادفع بالتي هي أحسن فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (فصلت: 34) وقوله: **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي**

مَاءَكَ وَيَأْسَمَاءَ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِيًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذْتُهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

الوجه الثاني من إعجاز القرآن: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آية وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّته دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر.

والإعجاز بكل واحد من النوعين، والإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها.

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمعيبات، وما لم يكن ولم يقع فوقه، فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: **لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ (الفتح: 27)،** وقوله عن الروم: **{وَهُمْ مَن بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ (الروم: 3 — 4)،** وقوله: **{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (الصف: 9)** وقوله: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا (النور: 55)**

وقوله: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) سِيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ (45) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} (التوبة: 14) فكان كذلك مما اطلع عليه قارىء هذه السيرة، وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حلفهم كقوله: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} (المجادلة: 8) وقوله: {يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ} (آل عمران: 154) وقوله: {مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} (النساء: 46) إلى غير ذلك من الآيات البيِّنات.

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده عليه الصلاة والسلام على وجهه، ويأتي به على نصه، فيقرُّ العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة، لم يرغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم، وكثيراً ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً، كقصص الأنبياء، وبدء الخلق، وما في الكتب السابقة مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً، ولا سقيماً من صحفه، بعد أن قرعهم ووبَّخهم بقوله: {قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (آل عمران: 93).

ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحداهم فيه الله بقوله: {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (94) ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته، لقوة حاله، وإنافة خطره، حتى كانوا يستنقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه، وهو الحكم».

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالاً، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به. قال تعالى: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} (الزمر: 23). وقال تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} (الحشر: 21). f. ومن وجوه إعجاز القرآن: كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله بحفظه، فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ { (فصلت: 42) وسائر معجزات الأنبياء لم يبق إلا خبرها، والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة، ومعارضة ممتعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزئد شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك الإلقاء في العجز بيديه، والنكوص على عقبيه.

ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه الصلاة والسلام في القرآن قال: «إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وزاجراً، وسنة خالية، ومثلاً مضروباً، فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فليج، ومن حكم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعَبَّ».

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر وقد قَدِمْنَا حديثه مستوفى.
ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم نبع الماء من بين أصابعه، وتكثيره ببركته، وقد روى هذا الجم الغفير من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود.
قال أنس: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانت صلاة العصر، فالتمس الناس ماءً للوضوء، فلم يجده، فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بوضوء، فوضع في الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا عن آخرهم، فقيل: كم كنتم؟ قال زهاء ثلاثمائة.

وقال ابن مسعود: بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم، وليس معنا ماء، فقال لنا: «اطلبوا من معه فضل ماء»، فأتي بماء، فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه.
وقال جابر: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قيل كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة، ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة، والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لما جُبلت عليه نفوسهم من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكتُ على باطل، فهؤلاء قد رَووا هذا، وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له، ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم لهم.

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته، وانبعائه بمسّه ودعوته، كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تلمعُ بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فيه شيء، ثم غسل عليه الصلاة والسلام فيه وجهه ويديه، وأعادها فيها فجرت بماء كثير، فاستقى الناس — وفي رواية ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق — ثم قال: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هنا قد ملئ جناناً». وقد قدّمنا ذلك في غزوة تبوك. وروى عن البراء وسلمة بن الأكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه الصلاة والسلام. وروى أبو قتادة أن الناس شكوا إلى رسول الله العطش في بعض أسفاره فدعا بالمِيضَاءَ فجعلها في ضيئته (ما بين الكشح إلى الإبط) ثم التقم فمها، فأنه أعلم، أنفت فيها أم لا؛ فشرب الناس حتى رَووا وملؤوا كل إناء معهم، فخيّل لي أنها كما أخذها مني. وكانوا اثنين وسبعين رجلاً.

ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محالٍ مختلفة، بحيث لا يشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقافات على روايتها.

ومن ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم، روى أبو طلحة أنه عليه الصلاة والسلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها عليها الصلاة والسلام ففنتت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول.

وروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق، وقال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمَتَا لَتَغَطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز. وكان عليه الصلاة والسلام قد بصق في العجين والبرمة وبارك. وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبي بكر طعاماً يَكْفِيهِمَا، فأطعم منه عليه الصلاة والسلام مائة وثمانين رجلاً. وروى مثل ذلك كثير من الصحابة كعبد الرحمان بن أبي بكر، وسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأنس بن مالك، رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام قصة حنين الجذع، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار. وفي رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجد لخواره. وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به. وفي رواية المطلب: وانشق حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه

فسكت. زاد غيره: فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ هذا بكى لما فقد من الذكر». وزاد غيره: «والذي نفسي بيده لو لم ألزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم» فأمر به فدفن تحت المنبر. وهذا الحديث خرَّجه أهل الصحة، ورواه من الصحابة كثيرون، ورواه عنهم من التابعين ضعيفهم، وبمن دون عدتهم يقع العلم لمن عني بهذا الباب، والله المنبِّت على الصواب.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام إبراء المرضى، ونوي العاهات، فقد أُصيبت يوم أُحد عينُ قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنتيه، فردّها عليه الصلاة والسلام، فكانت أحسن عينيه وأحدهما، وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد، فما ضرب عليه ولا قاح، وأصاب ابن ملاعب الأسيئة استسقاء، فبعث إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأخذ بيده حنوةً من الأرض، فتفل عليها، ثم أعطها رسوله، فأخذها يرى أنه قد هُزىء به، فأتاه بها وهو على شفى، فشربها فشفاه الله. وتقدم حديث علي ورمده في غزوة خيبر، وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عدّه، ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

أما ما منحه الله إياه من إجابة دعواته، فروي عن أنس بن مالك، قال: قالت أمي أمّ سلّيم: يا رسول الله خادمك أنس ادغ الله له، فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيتّه». قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإنّ ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم نحو المائة.

ودعا لعبد الرحمانين عوف بالبركة، فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانين ألفاً، وتصدق مرّةً بغير فيها سبعمائة بغير وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدّق بها، وبما عليها، وبأفتابها، وأحلاسها.

ودعا لمعاوية بالتمكين في الأرض فنال الخلافة، ودعا لسعد بإجابة الدعوة، فما دعا على أحد إلا استجيب له، وتقدم دعاؤه لعمرين الخطاب أن يعزّ الإسلام به، وقال لأبي قتادة: «أفلح وجهك، اللهم بارك في شعره وبشره»، فمات وهو ابن سبعين سنة، كأنه ابن خمس عشرة، ودعواته عليه الصلاة والسلام المستجابة أكثر من أن تُحصى يطّلع عليها قارىء سيرتنا هذه.

أما ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فمما سارت به الركبان، فعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه؟ والله ما ترك عليه الصلاة والسلام من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سمّاه لنا باسمه، واسم أبيه، واسم قبيلته.

وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستُغزى، وتُفتح خيبر على يد علي في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويُؤتُون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وقد قدمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة، وقدّمنا ما في القرآن من ذلك، وهذا يُغنينا عن الإطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت.

ومما ينير بصيرتك — أيها القارىء — ما منّ الله به على رسولنا من عصمته له من الناس، وكفائته من آذاه، قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة: 67) وقال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} (الطور: 48)، وقال: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} (الزمر: 36)، وقال: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} (95) وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة: 67) صرف حُجَّابه، وقال: «انصرفوا فقد عصمني الله». وقدّمنا حديث دُعُثور وإرادته قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وعصمة الله لنبيّنا، وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكاييد، فكفاه الله شرّه، وما منّ الله به عليه ليلة الهجرة، وحديث سُرَاقَة في الطريق، وعلى الجملة فيكفينا من هذا الباب أنه عليه الصلاة والسلام مكث بين أعداء الداء بمكة ثلاث عشرة سنة، وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين. فما تمكن أحد من إيصال أذى إليه صلى الله عليه وسلم، بل كفاه مولاه شرّ أعدائه حتى أظهر الدين وتمّمه.
